إشعال نيران الفتنة

وقع العدوان الأوّل على السلطان "محمد الثاني" من "بني قَرَمَان"؛ إذ استغلُّوا فرصةَ صعودِ سلطانٍ جديدٍ إلى عرش الدولة، وبدؤوا باحتلال الأراضي العثمانية، كما أرسلوا أمراء أُسَر "آيْدِنْ (*Aydın*)" و"مَنْتَشَه (*Menteşe*)" و"كَرْمِيَانْ (*Germiyan*)" إلى أراضيهم السابقة، وشرعوا في إشعال نيران الفتنة والثورات في منطقة غرب الأناضول، وبناءً على ذلك اتّخذَ السلطان قرارًا بغزوِ أراضي دولة "قَرَمَان"، وحينئذٍ أدرك أحدُ أمراء بني قَرَمَان ويُدعى "إبراهيم بك" أنه لن يستطيع الصمودَ أمام القوّات العثمانيّة؛ فطلبَ توقيعَ معاهدة سلام.

جاء وفدٌ من الرسل من بيزنطة بشكلٍ مفاجئ إلى معسكر الجيش العثمانيّ أثناء الحملة، شعر السلطان بالقلق إزاءَ هذا التطوّر غير المتوقّع، ورضي بالتصالح مع "إبراهيم بك" بعدما تدخّل الوزراء والعلماء والمشايخ، وهكذا اضطرّ السلطان الذي خرج من أجل الاستيلاءِ على دولة "قَرَمَان" بالكامل،

لقبول العرض لشعوره بالقلق من تحرُّكِ البيزنطيّين من جديد، وذلك بالرغم من عدم كونه راضيًا بما حدث، وبحسب الاتّفاق الموقّع بين الطرفين، سيحصل العثمانيّون على مدن "آق شَهِيرْ (*Akşehir*)" و"بَيْ شَهِيرْ" و"سَيْدِي شَهِيرْ(*Seydişehir*)"، كما يتعهد القَرَمَانيون بإرسال الدعم العسكريّ للجيش العثماني عندما يخرجُ في الحملات العسكرية، وأما البيزنطيّون فقد استغلّوا انشغالَ العثمانيّين في الأناضول وقدّموا طلبات جديدة، مهدّدين بإطلاق سراح الأمير "أُورْخَانْ" مدّعي أحقّيّته بالعرش.

وبينما الأمر كذلك، أرسلت الدولة البيزنطية عددًا من السفراء إلى مقرّ قيادة الجيش الذي يشهد توقيعَ المعاهدة لرغبتها في استغلال هذه الفرصة بغيةَ تحقيق مصالحها، وطالبت عبر وفدها الدبلوماسي الإدارةَ العثمانيّة ببعض المطالب الجديدة، وإلا فإنها ستُطلِقُ سراح الأمير "أُورْخَانْ"، وقال هؤلاء المبعوثون للوزير العثماني "خليل باشا" ما يلي:

> "لا يوافق إمبراطور الروم على دفع ثلاثمائة ألف درهم كمبلغ سنويّ، ذلك أن الأمير "أُورْخَانْ"، الذي هو كذلك ابن من أبناء السلطان العثماني مثل السلطان محمد، صار رجلًا في سنّ النضج، ويزوره كلّ يوم عددٌ لا يحصى من الناس الذين يخاطبونه بلقب "سيدي"، ويعلنونه حاكمًا على الدولة العثمانيّة، وبالرغم من رغبته في تقديم كمّ كبيرٍ من الهدايا، إلا أنه لا يستطيع فعل هذا، ولهذا السبب فهو دائمًا ما يطلب الأموال من الإمبراطور، بيد أن الإمبراطور ليس لديه الإمكانيات المادّيّة التي تلبّي احتياجات الأمير المتزايدة، وبناءً على ذلك فإننا نعرض عليك أمرين فاختر أحدهما، إما أن تُضاعِفَ المبلغ الذي تدفعه من أجل الأمير "أُورْخَانْ"، وإما أننا سنطلق سراحه، فلسنا مسؤولين عن رعاية ابنٍ

من أبناء بني عثمان، ويجب توفير هذه التكاليف المادّيّة من خزينة الدولة العثمانيّة، وإذا نفذتم ما نطلبه؛ سنحافظ على بقائه بالمدينة ونمنع خروجه منها".

كان "جَانْدَرْلِي خليل باشا" دبلوماسيًّا ورجل دولة محنّكًا، وبالرغم من اشتهاره بسياسته الخارجية الحذرة وآرائه المؤيّدة للسلام، غضِب غضبًا شديدًا لدرجة أنّه تكلّم بطريقةٍ لم تكن متوقّعةً من رجلِ دولةٍ ذي خبرةٍ مثله، وأجاب على وفد الرسل بكلماتٍ صارمةٍ جدًّا، حيث قال:

"أيها الحمقى! أيها الروم الأغبياء! أعرفُ جيّدًا المكر الذي تفكّرون به، لكن انسوا الآن حيلكم وألاعيبَكم القديمة، كان سلطاننا السابق شخصًا مسالمًا، وأما السلطان الحالي فهو ليس لديه الصفات التي تؤمنون بها، أيها الرجال الأغبياء! نحن لا نزال نُمْسِكُ بالمعاهدة المعتمَدَةِ التي وقّعناها حديثًا، وحبرها لم يجفّ بعد، وأنتم الآن تعرضون علينا الفزّاعات التي اختلقتموها كي تخيفونا في أثناء الحملة! فنحن لسنا أطفالًا جهلةً وضعفاء، افعلوا ما يحلو لكم! أعلنوا "أُورْخَانْ" سلطانًا على تراقيا إذا أردتم ذلك، وإذا رغبتُم في دعم المجريّين من أجل عبور نهر الدانوب، فليتفضّلوا وليأتوا، وإذا رغبتم في الهجوم علينا لاستعادة الأراضي التي فقدتموها، فلا تتأخّروا في فعل ذلك، ولكن اعلموا أنه من رابع المستحيل أن ينجحَ أيُّ أمرٍ تخطِّطون له، بل على العكس تمامًا، فإنكم حينها ستفقدون حتى ما تسيطرون عليه حاليًّا من مناطق".

وبالرغم من صدور ردّ فعل غاضب من الصدر الأعظم المعارض للحرب، فإن السلطان -الراغب في اتباع سياسةٍ خارجيّةٍ حربيّة فعّالةٍ- ردّ على المبعوثين البيزنطيين بهدوءٍ عجيبٍ للغاية.

وقد استقبل السلطان "محمد الثاني" وفدَ المبعوثين البيزنطي بكلِّ هدوءٍ وسكينةٍ، وذلك لرغبته في عدم الدخول في صراعٍ مع منافس له على عرشِ الدولة العثمانية في الوقت الراهن خشيةَ أنْ تَفْسُدَ خططه المستقبليّة، فأخبر الوفد البيزنطي أنه سيعود إلى "أَدِرْنَه" قريبًا، وطلب منهم المجيء إلى عاصمته لتقديم عروضهم، ومن ثمّ سمح لهم بالمغادرة.

الاستعداد للحصار

وهكـذا فقـد نجحَ السـلطان الشـابّ في حلّ مسـألة "بني قَرَمَـان"، وعـاد إلى "أَدِرْنَه"، فوصلَ في البداية مضيقَ البوسـفور مرورًا بمدينة "قُوجَه أَلِي"، ذلك لأن سفن الفِرَنْجَة كانت تُحاصر مضيـق الدردنيـل، وبينما كان يعبر مضيق البوسـفور، التفتَ إلى وزيره "خليل باشا" وقال له:

''هذه المنطقة تحتاج إلى بناء قلعة''.

مشـيرًا إلـى مكان "قلعـة الروملي" التي بُنيـت فيما بعد عند أضيَقِ نقطةٍ في مضيق البوسفور مباشرةً أمام قلعة الأناضول التي أنشـأها السلطان "بايزيد الأول"، وكان السـلطان "محمد الثاني" يرغـب في الاسـتفادة من هـذه القلعة -أي قلعـة الروملي- من أجل السـيطرة على مضيق البوسـفور، وتأمين عبـورِ جنوده عبر مياهِه، وتحجيمِ تحرّكات البيزنطيين.

وبالرغم من سيطرةِ العثمانيّين على ضفّتي مضيق البوسفور الشـرقيّة والغربيّـة، فـإن المضيـق -الـذي كان تحـت سـيطرة الإمبراطوريـة البيزنطية- كان يقسـم أراضي الدولة العثمانية إلى

نصفين، وكان عدمُ سيطرة العثمانيّين بالكامل على مياه البوسفور يشكّل خطرًا على وحدةِ أراضيهم، فإذا ما رغبوا في فتح القسطنطينية فعليهم بسط سيطرتهم الكاملة على هذا الممرّ المائي.

وما إن عاد السلطان "محمد الثاني" إلى "أَدِرْنَه" حتى أمر بالبدء بإنشاء هذه القلعة، وحينها استشعرَ الإمبراطورُ البيزنطيّ حجم الكارثة التي تلوح في الأفق، فأرسل وفدًا جديدًا من رسله على الفور إلى "أَدِرْنَه"، ولم يتطرّق الوفد البيزنطي للحديث عن المبلغ المخصّص للأمير "أُورْخَانْ" حفيد "يلدريم بايزيد"؛ إذ كانوا يطمحون للتوصّل إلى اتّفاقٍ مع السلطان من أجل وقفِ تشييد قلعة الروملي، وقالوا له:

"لقد مرّ قرنٌ على استيلائكم على "أَدِرْنَه"، ومنذ ذلك التاريخ وقّعنا معاهدات مع كافّة السلاطين العثمانيّين، ولم يفكّر أحد هؤلاء السلاطين في إنشاء أيّة قلعةٍ في أيّةِ مدينة بما في ذلك القسطنطينية، وعندما رغب جدُّك بايزيد الأول في بناء قلعة على الجانب الآسيوي من مضيق البوسفور، حصل على إذن بذلك من الإمبراطور "مانويل"، والآن وبينما كلّ شيء يسير على ما يرام، تريدون يا جلالة السلطان الحيلولة دون عبور الفرنجة إلى البحر الأسود وتدمير القسطنطينية جرّاء المجاعة التي ستتمخَّض عن بناء هذه القلعة، كما أنكم تتّخذون التدابير اللازمة من أجل وقف رسوم الجمارك التي نقوم بتحصيلها، ولهذا ننصحُكم بالعدول عن هذه الأفعال كي نكون أصدقاء كما كنا مع والدكم".

فأجابهم السلطان "محمد الثاني" قائلًا:

"لا تراودني أيّ فكرةٍ عدائيّةٍ تجاهَ مدينتكم، وأعتقد أن اتّخاذ بعض التدابير اللازمة من أجل حفظ أمن أراضي دولتي لا يعني خرقَ المعاهدة الموقّعة معكم، ولم أنسَ تحالفَ إمبراطوركم مع

المَجَـر ومنعـه عبور جيش والـدي إلى الروملـي، وعندما أغلقت سـفنكم مضيق البوسفور فرحتم واسـتهزأتم بمخاوف المسلمين، لقد عاهد والدي نفسـه على إنشـاء قلعة على ساحل الروملي عند وقوع معركة "فارنا"، وأنا الآن أحقّق أمنيّته هذه، وليس لكم الحقّ أن تمنعوني من فعل ما أريد في أراضي دولتي، وساحل الأناضول يتبـع دولتي، لأن سـكّانه مسـلمون، كما هو الحال أيضًا بالنسـبة لساحل الروملي، ذلك لأنكم لا تعرفون كيف تدافعون عنه، اذهبوا وأبلغوا سيّدكم بأن سلطان الدولة العثمانية الحالي لا يشبه أسلافه، فآمالهم لم تكن تصل إلى ما وصلنا إليه اليوم".

بعد أن أتمّ العثمانيّون الإعدادات اللازمة، وصل السلطان محمد إلى المنطقة من أجل الشروع في بناء قلعة "رُومَلِي حِصَارِي" والإشراف على عمليّـة البناء بنفسـه، ويـروي المـؤرخ "كريتوفولوس" أن السـلطان اختارَ موقـع بناء القلعة بنفسـه، وكلّف العمّـال بقياس أضيق مكان في المضيق، وحـدّد أبعـاد القلعة وحدودها، واهتمّ بكلّ التفاصيل الفنّيّة، ومن ثمّ كلّف كلًّا من "خليل باشـا" و"صَارُوجَا باشا" وشـهاب الدين باشا" و"زَاغَانُوسْ باشا" بمتابعةِ أعمال البناء.

ويُـروى أن قلعـةَ الروملي شـارك في بنائها سـتّة آلاف عامل ومتطوّع عملـوا ليـل نهار ليكتمل بناؤها خلال فترةٍ تعتبـر وجيزةً للغاية لم تتجاوز الأربعة أشـهر اعتبارًا مـن وضـع المخطّطات الإنشـائية الخاصّة بها، وإذا نظرنا إلى القلعة من الأعلى سـنجد أن مواقـع أبراجها تبدو وكأنها ترسـم اسم "محمد"، وهو اسم السلطان ونبي الإسلام ﷺ.

أبراج قلعة "رُومَلِي حِصَارِي" التي تبدو وكأنها ترسم اسم "محمد"، وهو اسم السلطان الفاتح ونبي الإسلام خاتم النبيّين والمرسلين ﷺ.

وبعدما اكتمل بناء القلعة، عُيّن "فِيرُوزْ أَغَا" قائدًا لها، ووُضع تحت إمرته أربعمائة جنديٍّ من الإنكشارية ومعهم بعضُ الأسلحة والذخيرة.

وكانت بعض المدافع القائمة بالقلعة لها باستطاعتها أن ترمي قذائفها حتى الطرف المقابل من المضيق، وكان في القلعة عشرون بابًا مُطِلًّا على البحر، وقد وضعوا مدفعًا عند كل باب من هذه الأبواب، وكان قائد القلعة "فِيرُوزْ أَغَا" قد تلقّى أوامر بإيقاف أيّ سفينةٍ تحاول عبورَ المضيق، بغضّ النظر عن حجمها أو الدولة التي تنتسب إليها، وإنزالِ أشرعتها، ثم اقتيادها إلى القلعة ورسوها أمامها ودفع الضرائب المقرّرة لعبورها، وأما السفن التي تُحاول العبور دون إذنٍ فستتعرَّض للقصف المدفعيّ حتى تغرق.

فرضت الدولة العثمانية على السفن الأجنبية الحصول على إذنٍ مسبقٍ قبل العبور من مضيق البوسفور، ويُحكى أنه عندما أرادت سفينة من البندقية بقيادة "أنطونيو ريزو" عبور المضيق بتاريخ السادس والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٤٥٢م) قادمةً من البحر الأسود دون الحصول على إذنٍ، قصفتها المدافع العثمانية قصفًا عنيفًا حتى غرقت، فصارت تلك الواقعة درسًا وتحذيرًا لمن جاء بعدها.

بسطَ العثمانيّون سيطرتهم الكاملة على مضيق البوسفور الذي يحمل أهمّيّة إستراتيجيّة من الدرجة الأولى، ويعبّر "طُورْسُونْ بَكْ"، مؤرّخ عهد السلطان محمد الفاتح، عن هذا الوضع بقوله:

> ''عندما أُلحق جزءٌ جديدٌ إلى قلعة الأناضول القديمة المشيّدة على الطرف المقابل من المضيق ودُعمت بالمدافع، صار من الصعب حتى على الطيور المهاجرة العبورُ من البحر الأبيض المتوسط جنوبًا إلى البحر الأسود شمالًا''.

وكانت هذه الحملة هي أولى الأعمال التي أقدمَ عليها السلطان الشابُّ من أجلِ الوصول إلى هدفِهِ المنشود، وفي الأيام التي تلت الانتهاءَ من إنشاء قلعة "رُومَلِي حِصَارِي"، اقتربَ السلطان محمد بجيشِهِ حتى مسافة ميلٍ من القسطنطينية، واستطاع رؤية المدينة جيّدًا من أعلى إحدى التلال، ثم عاد أدراجه إلى العاصمة "أَدِرْنَه" في أوّل يومٍ من سبتمبر/أيلول عام (١٤٥٢م) بعد أن أجرى بعض المخطّطات والفحوصات على الأرض.

وفي أثناء الإعدادات القائمة في "أَدِرْنَه"، كان أكثر المواضيع التي أولاها السلطان اهتمامه هو صناعةُ مدافع كبيرة لم يُسبَق لها مثيلٌ حتى لا تُقهر ولا تُقاوَم، وكان السلطان محمد يهتمّ بشكل خاصّ بزيادة عدد

المدافع وتوسيع قطرها لإدراكه القوّة التدميريّة التي تتمتّع بها، وكُلّف المهندسان العثمانيان "مصلح الدين" و"صَارُوجَا سَكْبَانْ"، وكذلك المتخصّص المجريّ في صناعة المدافع "أُورْبَانْ"، الذي فرّ من البيزنطيين ولجأ إلى الأتراك، كُلّفوا بإنجاز هذه المهمّة، فيما تولّى السلطان شخصيًّا مهمّة تصميم القذائف والطلقات والحسابات البالستية، ولقد تضاعف إيمان السلطان بقدرة جيشه على فتح القسطنطينية عندما حقّقت تجارب المدافع في العاصمة "أَدِرْنَه" النتائج المرجوّة، وقد لوحظ خلال القصف التجريبيّ أنّ المدافع التي يبلغ وزن قذائفها ستمائة كيلوجرام، قد وصلت قذائفها لمسافة ميل، وشكلت في الأرض حفرة بعمق ذراع، وسُمع دويُّها لمسافة كيلومترات، وأُطلق على هذا النوع من المدافع التي لم يسبق لها مثيل اسم "شَاهِي"، وقد بدأت قوافل المدافع تنطلق من "أَدِرْنَه" في أوّل يوم من فبراير/شباط عام (١٤٥٣م)، وكان الجيش العثمانيّ يضمُّ أربع عشرة بطّارية مدافع وثلاثة مدافع كبيرة لاستخدامها في حصار القسطنطينية، وأَرسلت قيادة الجيش العثمانيّ وحدةً من الفرسان قوامها عشرةُ آلاف فارس من الأمام لتأمين طريق الجيش والاستيلاء على القلاع الواقعة على طول الطريق، ووصلت قافلة المدافع إلى أسوار المدينة بعد رحلةٍ استغرقت قرابة الشهرين، وتقدّم القافلةَ مجموعةٌ مؤلّفةٌ من خمسين مهنيًّا ومائتي عامل من أجل تسوية الطرق وبناء الجسور على الطرُق التي سيمرّ منها الجيش، كما استخدم ثلاثين عربةً وستين جاموسًا لجرّ المدافع.

ويحكي المؤرخ البيزنطي "دوكاس (*Dukas*)" كيف أن السلطان "محمد الثاني" صبّ كلّ تركيزه على التفكير في حِصار القسطنطينية،

وأنـه لـم يمـلّ من التخطيط ليل نهـار من أجل تحقيق هـذا الحلم، وينقل لنا المشـاعر الجيّاشـة التي سـيطرت على السـلطان من أجل فتح المدينة كالتالي:

''لقد فارق الهدوء والسَّكينة قلبَ السلطان وصار ليله كنهاره، وكان ذهنُه شـاردًا دائمًا منشـغلًا بفتح القسطنطينية لدرجة أنّه كان يفكّر في الأمر كلّما خلدَ إلى نومِه أو اسـتيقظ منه، أو حتى تجوّل فـي قصره وخارجه، ولم يعدْ يهنأ بطعمِ النوم أو الراحة، وكان في يديـه دائمًا قلـمٌ وورقةٌ يذاكـر خريطة القسـطنطينية، وفي ليلة من الليالي خاصمه النوم للسبب ذاته، فاستدعى الصدر الأعظم خليل باشا إلى القصر في منتصف الليل وقال له:

"هـذا الأمر يشـغل بالي كثيرًا، ولـم يعـد بإمكاني النوم أو نيلَ قسط من الراحة، ولهذا أنتظر منك أن تساعدني بكلِّ إخلاصٍ في هذا الصدد''.

كان السلطان "محمد الثاني" يرى ضرورة أن تكون القسطنطينية تحت سيطرته بعدما اتّسعت رقعةُ دولته في الأناضول والبلقان بشكل كبير، ولقد أضحى البلاط البيزنطي في ذلك الوقت مركزًا للمؤامرات والفتن المدبّرة ضدّ الأتراك والمسـلمين بوجه عام، ولا يخفى أن البلاط البيزنطي شـهد عمليـة التخطيط لمعظم الحملات الصليبية التي بدأت على القدس عقب معركـة "مَلَاذْكِرْد (*Malazgirt*)" عـام (١٠٧١م)، والتحالفات الصليبيّة التي لم تنقطـع اعتبارًا من تاريخ دخول العثمانيين منطقة الروملي، سعى أباطرة بيزنطـة للحيلولـة دون اتّحـاد الأتراك فـي الأناضول من خـلال تحريض الإمـارات التركمانيـة ضـدّ بعضِهـا البعض، كما لـم يتورّعوا عـن حماية الأمـراء العثمانيّيـن من مدّعي السـلطنة من أجل جرّ الدولـة العثمانيّة إلى

حربٍ أهليّة، ولا شيء يمكنه توحيدُ طرفي الدولة العثمانية في الأناضول والروملي إلا فتح القسطنطينية، كما أن الأتراك يضمنون بهذا الفتح بقاءَهم بشكلٍ دائمٍ في البلقان.

ومن ناحيةٍ أخرى؛ كان العثمانيّون يواجهون صعوباتٍ جمّةً في نقل جنودهم من الأناضول إلى البلقان، وكان من ضمن التهديدات التي تؤرّق العثمانيين هو وصول جيشٍ صليبيٍّ بحرًا وضرب مراكزهم في الروملي من الخلف، وكانت القسطنطينية تتمتّع بأهمّيّة اقتصاديّة كبيرةٍ جدًّا لكونها أُنشِئت على مفترق طرق التجارة البرّيّة والبحريّة، وقد كان السلطان "محمد الثاني" يخطّط لجعل الأوروبّيين تحت إمرته من الناحية الاقتصاديّة والتجاريّة عن طريق فتح هذه المدينة العريقة.

وقد روى العديد من أئمّة علم الحديث أحاديث عن النبي ﷺ بشّر فيها بفتح القسطنطينية ومجّد فاتحيها وبشّرهم بدخول الجنة، وعلى رأسها "**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ (القسطنطينية) مَغْفُورٌ لَهُمْ**"(٥)، و"**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُفْتَحَ مَدِينَةُ قَيْصَرَ أَوْ هِرَقْلَ، وَيُؤَذِّنُ فِيهَا الْمُؤَذِّنُونَ**"(٦).

وأما أكثر الأحاديث التي يوردها العلماء في هذا الصدد فهو الحديث الذي يقول "**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ**"(٧).

لقد لعبت هذه الأحاديث النبويّة الشريفة دورًا مؤثّرًا للغاية في تشجيع المسلمين على غزوِ القسطنطينيّة وفتحِها إبّان مهد الدولة

(٥) صحيح البخاري، الجهاد، ٩٣.

(٦) نعيم بن حماد: كتاب الفتن، ٥٢٨/٢ "الناشر: مكتبة التوحيد-القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ"

(٧) المسند لأحمد ابن حنبل، ٢٨٧/٣١.

العثمانية كما كان الحال في عهد الدولتين الأمويّة والعباسيّة، وقد أضفت هذا الأحاديث حبًّا دينيًّا على غزوِ القسطنطينية التي تحمل أهمّيّة كبيرةً من الناحية السياسية، وقَوِيَ إيمان المسلمين بأن هذا النصر يعتبر وعدًا إلهيًّا، إلا أنّ الغزاةَ المسلمين لم يستطيعوا إسقاطَ المدينة بالرغم من محاولةِ غزوها في العديد من المرّات.

وبينما كان السلطان "محمد الثاني" منشغِلًا في "أَدِرْنَه" بالإعداد لحصار القسطنطينية في صيف عام (١٤٥٢م)، جمع أركان دولته والعلماء والقادة العسكريّين وتشاورَ معهم حول حصار المدينة، وقال لهم:

''إن فساد البيزنطيين ومكائدهم ضدّنا لن تنتهي ما لم نفتح القسطنطينية وننتزعها من بين أيديهم، ذلك لأن دولتنا لن تكون بمأمنٍ طالما ظلّت هذه المدينة التي تقسم أراضينا إلى نصفين في أيدي الروم وإن بادروا بتكليف قوّات دول أخرى بحماية المدينة، فإن ذلك سيكون أكثر خطورة بالنسبة لنا، لا تخطرنّ ببالكم محاولات حصار المدينة في عهد أجدادي وآبائي؛ فتظنّوا أننا لا نقدر على تحقيق هذا الأمر، أبدًا... لأنه بينما كانت المدينة تستعدّ للاستسلام أثناء حصار جدّي السلطان بايزيد الأول ووالدي؛ نجت في اللحظات الأخيرة بعدما وصلتها إمداداتٌ عسكريّةٌ مجريّةٌ ورومانيّةٌ من أوروبا، وحالفهم الحظّ بهجوم "تيمور" من آسيا على أراضينا الشرقية ونحنُ اليوم عند الحديث عن مساعدات الإيطاليين للقسطنطينيّة، فيجب أن نعلم أن ذلك أدى إلى صراع مذهبي بينهم وبين البيزنطيين مما نَتَجَ عنه انعدام الأمن والطمأنينة في المدينة، وأما نحن فنتفوّق على عدوّنا بأموالِنا وأسلحتنا وعدّتنا وعتادنا وسفننا وجنودنا، فإما أن نحاصر المدينة ونستولي عليها بهجومٍ خاطِفٍ نشنّه سريعًا، أو نحاصرها حصارًا طويلًا ونُجبر

العدوّ على الاستسلام، ولن يثنينا أيّ عائق عن تحقيق هذا الهدف، ولن يتحمّل قوّتنا الكاسحةَ أيُّ عدوّ".

واستمع السلطان كذلك لأفكار الوزراء والباشاوات حول هذا الشأن. وفي الوقت الذي اتفق فيه معه بعض أركان الدولة، عارضه البعض الآخر.

وكان الصدر الأعظم "خليل باشا" يأتي على رأس المعارضين الذين رأوا أن الاستيلاء على القسطنطينية صعبٌ للغاية، وأن مستقبلَ الدولة العثمانية سيتضرّر إذا فشلت في بسطِ نفوذها على هذه المدينة، إضافةً إلى أن حِصار القسطنطينية ربما يدفع الأوروبّيين لشنّ حملةٍ صليبيّة جديدةٍ، ذلك لأن المدينة تتمتّع بمكانةٍ بالغةِ الأهمّية من الناحية الدينيّة والسياسيّة والتجاريّة بالنسبة لأوروبا النصرانيّة.

ولهذا السبب خَشِيَ الفريق المعارض لأفكار السلطان من أن تتمخّض عن هذه المحاولةِ نتائج سلبيّة لا تُحمَد عقباها.

ويروي المؤرخ العثماني "طُورْسُونْ بَكْ"، الذي عاش في عهد السلطان محمد الفاتح وشهد حصار القسطنطينية بنفسه، أنّ بعض كبار رجال الدولة العثمانية عارضوا السلطان الشابّ الطامح لفتح عاصمة البيزنطيّين، وأبلغوه أن هجومًا كبيرًا كهذا يمكن أن يتمخّض عنه عواقب وخيمة، غير أنهم لم يستطيعوا إثناء السلطان عن فكرة فتح القسطنطينية، وينقل "طُورْسُونْ بَكْ" هذا المشهد قائلًا:

"ولهذا السبب لم يكن السلطان يغفل مطلقًا عن الحديث والتفكير في فتح القسطنطينية، وكان يتعجّل في القيام بهذا الأمر، لكن بعضَ أركان الدولة والأشخاص الذين في خدمته كانوا

يخبرونه بأن هذا الأمر بعيدُ المنال، وأن أجدادَه أنفقوا أموالًا طائلةً من أجل تحقيق هذه الغاية، ولكنّهم لم يستطيعوا تحقيقَ ذلك بالرغم من حشدهم قوّات عسكريّة هائلةٍ، وأبلغوه أن الخروج في حملةٍ عسكريّةٍ إلى القسطنطينية من الممكن أن يفضي إلى نشوب العديد من الفتن، وقد أرادوا بذلك أن يدفعوا نيّة السلطان إلى غياهب النسيان، لكنّه لم يلتفت قط إلى هذا الكلام".

وقد شعر السلطان "محمد الثاني" بالضيق والضجر جرّاء هذه الأفكار المعارضة، وأظهر تصميمه على تنفيذ هذه الأفكار بقوله:

"لو قُدِّر لي فتح هذه المدينة، فسوف أصهرُ أبراجَها وحصونها بنارِ غضبي وأجعلُها كالشموع إن كانت حتى مصنوعة من الحديد الخالص وليس من الحجارة والطوب".

وفي نهاية المطاف توصّل المجلس إلى قرارٍ يقتضي فتح القسطنطينية بعدما انضمّ الفريق المعارضُ إلى الأغلبيّة الموافقة على قرار السلطان.

وبينما كانت الإعدادات لحصار القسطنطينيّة تجري على قدمٍ وساقٍ، شنّت قوّةٌ من المغاوير العثمانيّين بقيادةِ "طُورْخَانْ بَكْ" وأبنائه هجومًا على شبه جزيرة "بيلوبونيز" في خريف عام (١٤٥٢م)، وبدأت الضغط على طاغيتي الجزيرة "ديميتريوس (*Dimitrios*)" و"توماس (*Thomas*)" شقيقي الإمبراطور البيزنطي "قسطنطين".

تلخّصت مهمّة "طُورْخَانْ بَكْ" طيلة فصل الشتاء في تهديد الحكام المستبدّين والضغط عليهم، هذا إضافةً إلى إنهاك قوى حكّام شبه جزيرة "بيلوبونيز" المستبدّين عن طريق الهجمات المكثّفة التي يقوم بها المقاتلون العثمانيون، وبذلك يضمن العثمانيّون قطع طرق الإمداد والمساعدات التي ينتظرها الإمبراطور البيزنطي من "بيلوبونيز".

وأما أمير أمراء الروملي "دَايِي قَارَاجَه بَكْ (*Dayı Karacabey*)" فقد كُلِّف بفتح آخر أراضي البيزنطيين القريبة من القسطنطينية.

فتحت القوّات العثمانيّة بلدة "أيوس ستيفانوس" الواقعة بالقرب من مدن "ميسيفري" و"أهيولو" و"فيزة" و"سيلفري" على ساحل البحر الأسود واستسلمت مدينة "بيجادوس" من تلقاء نفسها، وتسارعت وتيرة العمل في ترسانة "جليبولي" لصناعة السفن، وغُطّيت بعضُ السفن المصنوعة حديثًا بالنحاس ليكون كدرعٍ لها، وأُسندت قيادة الأسطول العثماني المكون من مائةٍ وسبع وأربعين سفينة حربية إلى "بلطة أغلو سليمان بك"، وكان على متن هذه السفن زهاء عشرين ألف جندي.

كان العثمانيّون إبّان حصار القسطنطينية يتفوّقون على عدوّهم البيزنطي من الناحية المادّيّة والمعنويّة، وأما البيزنطيّون فكانت تسيطر عليهم حالةٌ من الانهيار الأخلاقي، وكان هناك بعضُ رجال الدولة رفيعي المستوى في بلاط الإمبراطور يسرّبون المعلومات إلى الأتراك العثمانيّين، وانتشرت أنباءٌ بين عامة الشعب في القسطنطينية تتحدّث عن فتح الأتراك للمدينة، واعتُبر سقوطُ تمثالِ الإمبراطور "جستينيان" المنصوب على عمود أمام كنيسة "آيا صوفيا"، والكرةَ الحمراء التي كانت في يده، في القرن الرابع عشر الميلادي، علامةً على فتح الأتراك للقسطنطينية وانهيارِ الإمبراطورية البيزنطيّة، والسبب في ذلك أن الشعب البيزنطي وقتها كان يعتقد أن هذا التمثال يحمي المدينة من الأعداء، كما كان يرمُزُ هذا التمثال إلى السيطرة على العالَم وانتشرت روايات بين الشعب البيزنطي تفيد بأن التمثال يشير إلى الأناضول، وأن الشخص الذي سيهدمه سيأتي من هذا الاتجاه، أي

مـن الأناضول، كما تشـير نبـوءةٌ أخرى إلى أن "المدينة ستسـقط في عهد إمبراطور يسـمى قسـطنطين" وتُظهر هذه الأقاويل بوضوحٍ تامّ الحالةَ التي وصل إليها شعبُ القسطنطينية من الاكتئاب النفسيّ واليأس.

قضـى الإمبراطـور البيزنطـي قسـطنطين الحادي عشـر فصل الشـتاء منشـغلًا بالإعـداد للدفـاع عـن المدينـة، وأمـر بصيانـةِ جميـع الأسـوار والحصـونِ المحيطـةِ بها، وقد حُفرت خنادق بعرضٍ وعمقٍ عشـرين مترًا بمـوازاةِ الأسـوار التي حوّلت المدينة إلى ما يشـبه الجزيـرة، وكانت أكثر النقاط التي يثِقُ بها حكام المدينة هي الأسـوار المحصّنة التي اسـتطاعت حماية المدينة من مهاجميها على مرّ التاريخ، وقد عمد البيزنطيون لإنشاء خطِّ دفاعٍ إضافيّ عند مدخل خليج "القرن الذهبيّ" للحيلولة دون استفادةِ العثمانيّيـن مـن ضعـف الأسـوار المطلّة علـى مياهه هنـاك، والتي ترتفـع لطابقٍ واحدٍ فقط، كما مدّوا سلسـلة حديديّةً سميكةً من منطقة "سِيرْكَجِي (*Sirkeci*)" إلى "جَالَطَة (*Galata*)" على الشطرِ المقابل لمنْعِ السفنِ التركيّة من دخول الخليج، وخزّنوا مؤنًا تكفي المدينةَ لستّةِ أشـهر، وأسند حكّام المدينة مهمّة الدفاع عنها إلى الأوروبّيّين الذين لم يكونوا يرغبون بفقدان مصالحهـم التجاريّـة في الشـرق، وفرح سـكّان القسـطنطينية فرحًـا كبيرًا بمجـيء القائد الجنوي الشـهير "جسـتينياني (*Guistiniani*)" يوم السـادس والعشـرين من يناير/كانون الثاني عام (١٤٥٣م) ترافقُه سفينتان عسكريّتان كبيرتان محمّلتان بمعدّاتِ الحرب وسبعمائة جنديّ.

السلاسل البيزنطية التي كانت مشدودة قبل الفتح

تنفّس البيزنطيّون الصعداءَ بقدوم "جستينياني" المعروف بشجاعتِه وبطوليته، وقام هذا القائد الجنوي -الذي يرافقه ألفان من الجنود الذين وضعوا في خدمته- بترميم الأسوار التي حمتِ المدينة من العديد من الهجمات حتى ذلك اليوم، ثم اختار الأماكن المناسِبةَ لتثبيت المجانيق القاذفةِ للحجارة، ودعّم الأسوار المطلّةَ على البحر على وجهِ الخصوص.

وكانت هذه الأسوار المصطفّة لثلاثةِ صفوفٍ على طول الساحل من بحر مرمرة إلى ساحل منطقة "أيوب"، تُعتَبَرُ عوائق دون تجاوزها خرقُ القتاد، وقد حفر البيزنطيون أمام هذه الأسوار خنادق كبيرةً بعمق وعرض عشرين مترًا، وكانت أسوار القسطنطينية، التي خضعت لعمليّة ترميمٍ قبل ثلاثة أعوام من الحصار، على شكلِ مثلّث، وقد خطّط الإمبراطور البيزنطي لصدّ الهجمات القادمة من البرّ بفضل هذه الأسوار، كما اتّخذ التدابير اللازمة لصدّ أيّ هجومٍ يأتي من البحر، وعمد البيزنطيّون إلى ربط السفن والبراميل القديمة ببعضها البعض بسلاسلَ غليظةٍ، ثم أنزلوها

إلى البحر في محاولةٍ منهم لمنع السفن العثمانيّة من دخول الخليج، وإلى جانب هذا، جرى تجهيزُ ستّة آلاف جنديّ بيزنطيّ وحوالي ثلاثة آلاف من الجنود القادمين للدعم من الخارج... وكان سيدافعُ عن المدينة -إلى جانب الجنود البيزنطيين- جنودٌ من إيطاليا وإسبانيا وكريت وفرنسا وروسيا والمجر، إضافةً إلى جنودٍ أتراك مرتزقة، كما أعدّ البيزنطيّون سلاحًا فعّالًا آخر، ألا وهو النار الإغريقية(٨) أو "*Grєjuva*".

واضطرّ المسؤولون بالقسطنطينية إلى جمع المعادن النفيسة الموجودة في الكنائس وصهرِها لسكّ العملة من أجل الخروج من الأزمة الاقتصاديّة التي عصفت بالإمبراطورية في ذلك الوقت.

أراد الإمبراطور البيزنطيّ الحصول على دعم العالم النصراني الكاثوليكي من أجل تحريك الدول الأوروبية للوقوف بجانبه ضدّ العثمانيين، ولذلك اتّفق مع البابا بتاريخ الثاني عشر من يناير/كانون الثاني عام (١٤٥٢م) من أجل اتّحاد الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، لأنه يعرف جيّدًا أن الجيش البيزنطي لن يستطيع أن يدافع عن المدينة بمفرده، وصل الكاردينال "إيسيدوروس (*Isidoros*)" القسطنطينية يوم الثاني عشر من سبتمبر/أيلول من العام ذاته معلنًا اتّحاد كنيستي الشرق والغرب في كنيسة "آيا صوفيا"، وأجرى مراسم هذا الإعلان على الطريقة الرومانية، ولكن الشعب تجمّع في الساحة وندّد بالحفل.

(٨) النار الإغريقية: أي النار السائلة، ولا تعرف مكونات هذه المادة بدقّة، ولكن يرجّح أنها كانت مزيجًا مركّبًا من عدّة مواد سريعة الاشتعال كالكحول والنفط وملح الصخور والكبريت والقار، وكانت لهذه المادة خاصية الاحتراق حتى على سطح الماء، لذلك سميت أيضًا بالنار السائلة أو البحرية، يذكر المؤرخ البيزنطي "ثيوفانس (*Theophanes*)" أن اختراعَ النار الإغريقية يرجع للمهندس الفينيقي "كالّينيكوس (*Callinicus*)" من بعلبك وذلك سنة (٦٧٠م) .

غير أن أتباع الطائفة الأرثوذكسية عارضوا هذا الإجراء بشدّة، وامتنعوا عن الذهاب إلى كنيسة "آيا صوفيا"، وبعد هذه الواقعة صارت كنيسة "آيا صوفيا" شبه مهجورة لا يزورها أحد، ولا تزال ذاكرةُ شعب القسطنطينية تتذكّر جيدًا كيف نُهبت المدينة إبان هجوم الأوروبّيين عليها عام (١٢٠٤م)، وكيف أن هؤلاء الغزاة استحقروهم وقلّلوا من شأنهم، وكما كان البيزنطيون لا يرغبون في الاستسلام للأتراك العثمانيّين، لم يريدوا أيضًا بيع أرواحهم لروما الكاثوليكية والتخلّي عن عقيدتِهم الدينيّة.

وقد وصلت الاضطراباتُ والقلاقل في المدينة إلى أقصى درجةٍ في ذلك الوقت، وأظهر الدوق الأكبر "لوكاس نوتاراس (*Lukas Notaras*)" ردّ فعلٍ رافضٍ لاتّحاد كنيستَي الشرق والغرب، بحيث تعكِس كلماته التالية المشاعرَ التي أحسّ بها سكّان القسطنطينية إزاءَ هذه الخطوة، فيقول:

> ''نرجّح رؤية عمامةِ المسلمين في القسطنطينية على أن نرى قبعة الكاردينالات''.

وكان الإمبراطور قد فقدَ سيطرته تمامًا على سكّان المدينة.

فتح القسطنطينية

وتحرّك السلطان محمد الفاتح من "أَدِرْنَه"، عقب إتمام الاستعدادات اللازمة، يوم الجمعة الموافق للثالث والعشرين من مارس/آذار (١٤٥٣م) على رأس جيشِه، ويرافقُه قادةُ الجيش ورجال دولتِه والعلماء والوزراء والأمراء ووصل أمام المكان الذي يسمى "طُوبْ قَابِي (*Top Kapı*)" يوم الخامس من أبريل/نيسان، وأمرَ بنصْبِ خيمتِه هناك، وأمرَ أيضًا "جَبَه جِي بَاشِي (*Cebecibaşı*)"[٩] بتوزيعِ السلاح على جنود "قَابِي قُولُو" واستعدادِ غيرهم للقتال في اليوم التالي.

أُعِدّت الخطط على أن تبدأَ الحربُ يوم الجمعة الموافق للسادس من نيسان/أبريل (١٤٥٣م) وكان قوام الجيش العثمانيّ نحو ثمانين ألف جنديٍّ بما فيهم المتطوّعون، وقد عسكرت هذه القوّات في الأماكن المحدّدة لها والتي تمّ تعيينها بناءً على جولات تفقّديّة ومخطّطات أجريت مسبقًا تحت إمرة "جَانْدَرْلِي

(٩) صانع الأسلحة ومصلحها، ويُطلق على نوعٍ من العساكر من أفراد "قابي قولو"، وظيفتهم توصيل الأسلحة إلى العساكر حتى الصفوف الأمامية أثناء وقوع الحرب، وقد أطلق على قائدهم "جبه جي باشي (*Cebecibaşı*)" وعلى تنظيمهم "جبه جي أوجاغي (*Cebeci ocağı*)". (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ٨٢).

خليل بَاشَا (*Çandarlı Halil Paşa*)" و"زَغَانُوسْ بَاشَا (*Zağanos Paşa*)"، وحاصرت القوّات العثمانيّة الأسوار البرّيّة الممتدّة من منطقة "آيْوَانْسَرَايْ (*Ayvansaray*)" إلى "يَدِي كُولَه (*Yedi Kule*)"، وأما خيمةُ السلطان الفاتح فقد نُصبت على تلة "مَالْتَبَة (*Maltepe*)" مقابلة لمكان "طوب قابي" أضعف قسم من الأسوار فيما يُعتقد، وتمركز حولها أفراد القوّات الخاصّة المكلّفة بحماية السلطان على شكل دائرة، وأخذت وحدات المدفعيّة مكانها أمام الخطّ المركزي للجيش العثمانيّ، وتمركزت في هذا الموقع المدافعُ الحديديّة الطويلة وآلاتُ الحرب المتعدّدة والمجانيق وأبراجُ الحصار المتحركة، وأما الإمبراطور البيزنطي فقد أمر بإنشاءِ مقرّ قيادة جيشه في "طوب قابي"، وذلك نظرًا لأن الأسوار هنا ضعيفة نوعًا ما لكون الأراضي الواقعة بين "طوب قابي" و"أَدِرْنَه قَابِي" مائلة، وسيتولّى الدفاع عن ذلك الخطّ القائد العسكريّ "جستينياني".

عقب تحرك السلطان من "أَدِرْنَه"، وصل الأسطولُ العثمانيّ إلى المنطقة تحت قيادة قبطان البحار "بلطة أغلو سليمان بك" بعد خروجه من سواحل "جليبولي"، وكانت مهمّة الأسطول هي حصار المنطقة المحيطةِ بأسوار المدينة ومنع دخول أيّ مساعداتٍ تأتي من الخارج، كما صدرت تعليمات إلى قيادة الأسطول بمحاولة دخول الخليج إذا سنحت الفرصة، وكان الأسطول يتألّفُ من اثنتي عشرة سفينةً من نوع "قادرغه"[١٠]، وحوالي سبعين سفينة شراعيّة، ونحو عشرين سفينة شحن.

(١٠) القادرغه: نوع من السفن في الأسطول العثماني، وكان أكبرها؛ لكل واحدة منه خمسةٌ وعشرون مقعدًا وتسعةٌ وأربعون مجدافًا، يحرك المجداف الواحد أربعة أشخاص أو خمسة... كانت تعمل بالمجداف والشراع، وتحمل الواحدة منها مدفعيّة كبيرة وأربعًا وسطى وثماني صغيرةً. (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١٧٢).

وأما أسطول الحلفاء المكوّن من سفن البيزنطيّين وجنوة والبندقية والباباوية فقد تمركَزَ عند مدخل خليج القرن الذهبيّ خلف السلاسل الممدودةِ على ضفّتيه للحيلولة دون عبور الأسطول العثماني إلى الخليج.

وعقب أداء صلاة الجمعة يوم السادس من نيسان/أبريل عام (١٤٥٣م) أمام الأسوار، وبعد إكمال عمليّة تمركز جميع فِرَقِ الجيش العثماني؛ بُعث رسول إلى الإمبراطور البيزنطي -كما تقتضي العادة الإسلامية- لدعوتِه لتسليم المدينة من تلقاء نفسه تجنُّبًا لإراقة الدماء من غير داعٍ، إلا أنّ الإمبراطور رفضَ هذا العرضَ لثقته في أسوار وحصونِ مدينته، وبالمساعدات التي توقّع أن يتلقّاها من أوروبا، غير أنه عرض على العثمانيّين دفع الضرائب السنويّة لدولتهم، وتسليم كافّة المدن والقلاع باستثناء القسطنطينية، وإظهار التبعيّة لهم، لكن هذه العروض لم تكن كافيةً لإثناء السلطان الفاتح عن غزو المدينة.

وبعد أن فشلت عمليّة التوصُّل إلى مصالحةٍ بين الطرفين، أعلن المنادون الطوّافون بين وحدات الجيش أن الحصار قد بدأ، ودافع الإمبراطور البيزنطيّ وجنوده عن بلادِهم وشرفهم ببطولةٍ كبيرةٍ، وذلك بالرغم من ضعف دولتهم وتردّي أوضاعها، حتى إنهم صدّوا هجومًا خارج أسوار المدينة شنّه عددٌ من الوحدات العثمانيّة المتطوّعة غير النظاميّة في اللحظات الأولى لحصار القسطنطينية، لكنهم اضطرّوا إلى الانسحاب إلى ما وراء الأسوار بتدخّل القوّات العثمانيّة النظاميّة.

بدأت الحربُ بإطلاق المدافع العثمانية قذائفَها يوم السادس من أبريل/نيسان، وكانت المجانيق تقصِفُ القذائفَ الحجريّة، إلى جانب

المدافـعِ التـي يصـمُّ صوتُها الآذان وتنشـر اللهيبَ هنا وهنـاك، كما عمد الرمـاة العثمانيّون إلـى إطلاق وابلٍ كثيفٍ من سـهامهم تجاهَ الثغرات في الأسوار حتى أنهكوا القوّات البيزنطيّة المدافعةَ عن المدينة.

لـم يكـن بمقدور الجنـود العثمانيّين فتح ثغرات تسـمح لهم بالعبور إلـى ما وراء أسـوار المدينـة، ذلك أن البيزنطيين كانـوا يصلحون أيّ ثغرةٍ تنشـأ في الأسـوار على الفور، ولقـد واجَهَ العثمانيّـون عائقَين كبيرَين منذ بدايـة الحصـار؛ أوّلهما: الأسـوار المنيعـة، وثانيهما: النـارُ الإغريقية التي لم يسـتطع الجنود الأتراك الاقتراب من الأسـوار بسببِها، وكانت من بين الطـرق التـي جرّبوها للتغلُّبِ علـى هذين العائقَين هي حفـرُ أنفاقٍ تحت الأرض ووضـع ديناميت لتفجير الأسـوار، لكنهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى النتيجةِ المنشـودةِ بسبب العوائق المختلفة التي واجهوها في كلّ مرّةٍ، وكان الصراع القائم فوق الأرض يقابله صراعٌ آخر يجري تحتها.

ثُبّتَتِ المدافـع الكبيرة يوم الحادي عشر من أبريل/نيسان في الخنادق الموجـودة أمـام "طُوبْ قَابِي" على شـكل أربـع بطّاريـات في مجموعات ثلاثيّـة، وكان إلـى جانـب المدافِـع يوجـد أسـلحة ناريّـة تشـبه المدافـع الصغيرة التي يمكن حملها باليد، وكانت قذائفُ المدافـع العثمانيّة الكبيرة لا تهزّ أسـوار القسـطنطينية فحسـب، بل في الوقت نفسه تزعزعُ معنويّات سـكّان المدينـة، وكلّما سـمع الشـعب البيزنطي ضجيـجَ المدافـع ورأوا انهيار الأسـوار، كانـوا يبتهلون بالدعـاء بقولهم "ارحمنا يـا إلهنا!"، وكان القصـف المدفعيّ المكثّف من جانب القوّات العثمانيّة بمثابةِ إرهاصةِ بدءِ هجومٍ عامٍّ قادم.

وفي يوم الثاني عشر من أبريل/نيسان الذي لم يستطع فيه البيزنطيون التقاطَ أنفاسهم بسبب القصف العنيف للمدافع العثمانيّة، تحرّك الأسطولُ التركيّ المكون من مائة وخمسين قطعة بحريّةٍ مستغلًّا الرياح الجنوبية التي هبّت بشكلٍ يسمحُ بهذه الحركة، واجتمع أمام منطقة "بَشِيكْتَاشْ"، ثم بادر إلى القيام بمناورةٍ سريعة نحوَ الخليج، الأمر الذي أفضى إلى نشوب حالةٍ من الاضطراب الشديد في صفوف البيزنطيين، لكن قائد الأسطول "بلطة أغلو سليمان بك" سحب سفن أسطوله بعد هذا الهجوم الذي كان بمثابة جسّ نبضٍ للعدوّ؛ إذ كان الهدف من الهجوم هو قياس القوّة البحريّة للعدوّ، وقد شاهد البيزنطيون مناورات الأسطول العثماني الكبير من خلف الأسوار، ممّا استدعى لديهم حالةَ يأسٍ شديدة؛ لأنهم لم يسبق لديهم تجربةُ أن تحاصَرَ مدينتُهم من البرّ والبحر وإنما اعتادوا على صدّ الهجمات البرّيّةِ فقط، فالوضع هذه المرّة مختلفٌ تمامًا، وكان هذا المشهد المخيف باكورة إنذارٍ بالقبضة العثمانية البحرية الجديدة.

وفي اليوم نفسه الذي ضغط فيه الأسطول العثمانيّ على الخليج، وقعت حادثة سلبيّة في مقر قيادة الجيش العثماني، حيثُ وصلَ وفدٌ مُرسَلٌ من ملكِ المجرِ إلى السلطان محمد ليخبرَه بأن هدنة "سيمنديرا" الموقّعة باسم "جان هونياد" لدى جلوس السلطان على العرش قد ألغيت، والسبب في ذلك أن "هونياد" لم يعدْ نائبًا للملك، وأعاد الوفد المجريّ نصّ الاتفاقيّة التي تحمل توقيعَ السلطان محمد، وطلبوا الوثيقة التي تحمل توقيع ملك المجر، كما بادر الوفد بالتلميح إلى الإعداد لحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ من أجل القضاء على العثمانيّين، لكن السلطان العثماني

لم يُلقِ لهم بالًا، وكان يبدو أنه عازمٌ على إنجاز العمل الذي بدأه، وبالرغم من التوتّر الذي حدثَ في مقرّ قيادة الجيش العثمانيّ، واصلتِ القوّات العثمانيّة حصارَ القسطنطينية وقصفَ أسوارها وحصونها قصفًا مكثّفًا.

بدأت الضربات الكثيفة بإحداث دمارٍ كبيرٍ بأسوار المدينة وزعزعةِ الجدران والأبراج، إلا أنّ حامية المدينة كانت تبذل جهدًا جبّارًا من أجل ترميمِ الثغرات التي أحدثتها القذائف العثمانيّة في الأسوار وبناء الأماكن المهدّمة؛ إذ كانوا يصلحون الجدران المهدّمة بالحجارة والبراميل والألواح الخشبيّة، وكان من الواضح أن العثمانيّين سيحاولون القيام بهجومٍ شاملٍ على أسوار المدينة عقب القصف الكثيف، وأما البيزنطيون فكانوا يحفرون الخنادق أمام الأسوار من أجل صدّ هذا الهجوم، ويملؤون البراميل بالتراب ويبنون خطًّا دفاعيًّا، ويعدّون أوتادًا ذات رؤوسٍ مدبّبة، وكان الإمبراطور "قسطنطين" يجري جولاتٍ تفقّديّة بين الحين والآخر في المدينة وخطوط الدفاع، ويشجّع شعبَه وجنوده، وكان يرغب في زيادة قدراتهم على التحمّل وصدّ الهجوم، إلا أنّ الإمبراطور وسكّان المدينة والجنود كانوا يدركون جيّدًا أن هذه المرّة تختلف تمام الاختلاف عن المرّات السابقة، وأن الوضع وخمٌ للغاية، فلم تكن المدينة قد تعرّضت للضغط وأسوارها للتدمير لهذه الدرجة من قبل، وكان المشهد الذي أمامهم يزيد من يأسِهم وخيبةِ أملهم.

وبحلول يوم السابع عشر من أبريل/نيسان بدأت تتحرّكُ آلةٌ حربيّة جديدةٌ، إذ قرّبت القوّات العثمانية الأبراجَ المتحرّكةَ من الأسوار، وبادرَ الجنود إلى ردم الخنادق المملوءةِ بالمياه، واستعدّ الجنود العثمانيّون لشنِّ

هجومٍ شاملٍ، وأجروا أوّل تجربةٍ عمليّةٍ ليلةَ الثامن والعشرين من أبريل/ نيسان.

استمرّ الهجوم -الذي بدأ بعد منتصف الليل- حتى شروق الشمس، وقد اقترب المقاتلون العثمانيّون من أسوار القسطنطينية، مستغلّين ظلمةَ الليل الحالك، وبدؤوا هجومَهم بضجّةٍ كبيرةٍ بالتزامن مع قرعِ الطبول، وكان أهل المدينة أيضًا يسمعون هذه الأصوات المخيفة، وحاول الجنود العثمانيّون الصعود إلى الأسوار بواسطة الحبال والسلالم التي ألقوها على الأسوار، أما حاميةُ الأسوار فكانوا يدافعون باستماتةٍ عن مواقعهم، وكان الجنود العثمانيّون يسعون لسحب الحواجز الدفاعيّة التي شكّلها الجنود البيزنطيون مستخدمين الرماح الخطافية والحبال ذات الأطرافِ الخطافية، وكان هدفُ الجنود العثمانيين تدميرَ الخنادق التي تحمي البيزنطيين، وفي الوقت الذي تعرّضت فيه الوحداتُ العسكريّة البيزنطيّة للضغط بنيران المدافِعِ والبنادق وسيلٍ من الأسهم، كان الجنود العثمانيون الذين حموا أنفسهم بالدروع يحاولون صعودَ الأسوار عبر السلالم التي أسندوها إلى الأسوار، لكن الزيوت والمياه المغليّة التي كان البيزنطيّون يسكبونها من أعلى الأسوار والحجارة التي كانوا يلقونها كانت تحول دون صعود الجنود الأتراك، وكان دخان المدافع والبنادق يعيق الرؤية والحركة بشكلٍ كبيرٍ، وفي النهاية صدرت أوامر للجنود العثمانيّين بالانسحاب، فابتعدوا عن الأسوار تدريجيًّا، ولقد لعب القائد "جستنياني" والجنود الذين كان يقودهم دورًا حاسمًا في صدّ الهجوم العام الأوّل للعثمانيّين.

إلا أنه عندما فشِلت هذه المحاولة، تقرّر قصفُ أسوارِ المدينة بشكلٍ أعنف حتى تضعف الأسوار بشكلٍ كاملٍ.

جندي إنكشاري مسلح

كان هـدف هـذه التجربـة من الهجوم العـام هو قياس القـوّةِ الدفاعيّة للبيزنطيّيـن، ولقـد ظهـرت في هـذا الهجوم النقـاط القويّـة والضعيفة في أسـوار المدينة تقريبًا، وكان يجب على القيـادة العثمانية إعداد مخطّطات مغايـرةٍ وفق هـذه الوضعيّة الجديـدة، وثُبّتت بطّاريّات المدافـع العثمانيّة فـي المنطقـة الواقعـة بين "طُوبْ قَابِـي" و"أَدِرْنَه قابي" عقـب تحليلِ حالةِ

الأسـوارِ جيّـدًا، لكن كان هناك مـا يحيّر بعض القـواد العثمانيين وهو أنّ القـوّةَ الدفاعيّة للبيزنطيّين كانت لا يسـتهان بهـا، لأنهم كانوا عازمين على الدفـاع عـن المدينة ببطولةٍ حتى آخر نفسٍ لديهم، وقد سـيطر الأسـطولُ العثمانـيّ علـى جزيرة "بويـوك أدا" الواقعة في بحر مرمرة في اليوم نفسـه الـذي فشـل فيه هذا الهجوم العام الأول الـذي قامت به القوّات العثمانيّة، وكان هذا النصرُ سـببًا في التخفيفِ -ولو قليلًا- من آثار خيبةِ الأمل التي شعر بها الجنود إثرَ فشلِ هجومِهم.

وصلـت مجموعـة من الرسـل القادمين مـن "كِلِيبُولُو" إلـى مقرّ قيادة الجيـش العثمانـي يوم العشـرين من أبريل/نيسـان حاملينَ خَبَـرًا مفادُه أن سُـفُنًا من "جنوة" تعبر مضيق الدردنيل حاملةً على متنها الجنود والذخيرة والمؤنَ لدعم البيزنطيّين، وقد مُلِئت أشرعتها بالرياح فتقدَّمت بسرعةٍ حتى وصلت إلى مشـارف القسـطنطينية، غير أن حركتها توقّفت جرّاء الانقطاع المفاجئ للرياح، وقد أصدر السـلطان محمد أوامرَه بمصادرةِ هذه السفن في الحال أو تدميرِها بالكامل إن لم تستلمْ.

هاجمـت القـوادِس العثمانيّة التـي كان يقودُها "بَلْطَة أُوغْلُو سـليمان بَـكْ" السـفنَ الجنوية التي كانـت تقفُ بلا حركـةٍ عند منطقة "سُـوتُونْلَرْ" فـي "زَيْتِيـنْ بُورْنُو" وسـط جلبةٍ كبيرةٍ، وحاصرت السـفنُ العثمانيّةُ سـفنَ جنوة من كلّ جانبٍ، وقد بدأتِ المعركة بين الجانبَين بالأسهمِ والحجارة الملقـاةِ مـن الآلات المخصّصـة لهذا الغرض، وتداخلت السـفن ببعضها البعـض، وحاول الجنـود العثمانيون إضرام النيران بسـفن العدوّ من أجل إحراقها، ولهذا كانوا يتشـبّثون بحبالِ سـفنهم وحديدِها لكن جنودَ العدوّ

لم يسمحوا لهم بذلك، وبادروا إلى قذفِ الجنود الأتراك بالحجارةِ من خلال الآلات، وقد بدأت المواجهةُ بين الأسطولَين بعدما انغرز منخس سفينة "سليمان بك" الأميراليّة بإحدى سفنِ العدوّ، حاول الجنود العثمانيون إضرام النيران في السفن الجنويّة من الأسفل وحرقَ أشرِعتها بالأسهم التي ألقوها وقطعَ حبالها وثقبَ هياكلها ببلطاتهم، كما سعوا من ناحية أخرى إلى الصعود إلى سفن العدوّ بواسطة الحبال الخطّافية والسلالم، وأما من كانوا على مَتنِ السفنِ فملؤوا البراميلَ بمياهِ البحر وأفرغوها على الحرائق لإطفائها، وأجبروا الجنود العثمانيّين المحاولين الصعود للسفينة على النزول إلى الأسفل بضرباتِ الرماح والأسهم والفؤوس.

مرّت ثلاث ساعات، لكن البحّارة العثمانيّين لم يستطيعوا الحصول على نتيجةٍ إيجابيّةٍ، وبعد أن تحوّلت المعركةُ ضدّ الأتراك لبعض الوقت، رغب السلطان الذي كان يشاهدُ المعركة البحريّة عن قُرْبٍ، في أن يتدخّل على ظهر جواده في المعركة البحريّة "وكأنه يريد أن يغيّر الموقفَ الذي عليه الجنويّون لصالحه"، وأصدر الكثيرَ من الأوامر لقائد الأسطول "سليمان بك" وسائر البحّارة الآخرين، لكن ذلك لم يغيّر سيرَ المعركة، ولم تستطِع السفن العثمانيّة إيقافَ السفن الجنويّة بسبب ارتفاع جوانب سفن العدوّ وتحرّكها سريعًا نحو الميناء بعدما امتلأت أشرعتُها بالهواء، وفتح البيزنطيّون السلاسل التي وضعوها عند مدخل الخليج، ومن ثم شدّوها مرّةً أخرى ما إن دخلت السفن التي تحمل المساعدات.

تضاعفت الروح المعنويّة ومستوى المقاومة لدى سكّان القسطنطينية وجنودها بفضل المساعدات القادمة من جنوة، ونسيَ البيزنطيّون -الذين شاهدوا هذه المعركة الطاحنة التي دامت لثلاث ساعات من خلف

الأسـوار- أنفسـهم وبادروا إلى الاحتفـال بالنصر الذي حقّقـه اللاتينيّون علـى العثمانيّيـن، وعمّ الفرح المدينة ووصـل إلى أبعد مدى، فيما أفضت هـذه الهزيمـة البحريّة إلى تراجـع مسـتوى الـروح المعنويّـة بين صفوف الجيش العثمانيّ.

شـعر السـلطان العثمانـي بالغضـب الشـديد جـرّاء هـذه الهزيمة في المعركـة البحريّـة التـي وقعت فـي المنطقـة بين "يَـدِي قُولَـه" و"لَانْجَا"، وكذلك بسـبب وصول سـفن المساعدات إلى البيزنطيّين، وفكّر في إعدامِ قائد الأسـطول "سـليمان بك" الذي اتّهمه بالجبن والعجز والفشـل، وقد عُزل قائد الأسطول من منصبه بعدما استطاع أن ينجو بحياته بفضل تدخُّل كبار رجال الدولة، وعُيّن مكانه "حمزة بك" قائدًا للأسطول.

اجتمـع أعضاء مجلـس الحرب العثماني ليلة عشـرين أبريل/نيسـان للتشـاور حول عرض السـلام الذي قدّمه الإمبراطور البيزنطيّ لرغبته في اسـتغلال الأزمة الناجمةِ عن الهزيمةِ التي تعرّضَ لها الأسـطول العثماني، واندلـع نقاش حادٌّ بين مؤيـدي متابعةِ الحصار من رجال الدولة العثمانية ومعارضيهـم، كما حدثت حالةٌ من الفوضى بين الجنود، وبدأت حالةٌ من التفكُّكِ تنشـب بين مؤيّدي الحصار ومعارضيه بين صفوف الجنود، ولقد زاد هذا الفشل من دعم الفريق المعارض للحصار الذي كان يقوده "خليل باشـا"، وتروي لنـا المصادرُ التاريخيّة العثمانيّة الأحـداثَ التي وقعت في تلك الأيام كالتالي:

> ''شعر سـكّان القسطنطينيّة بسـعادةٍ غامرةٍ، وبدؤوا يتطاولون بالكلام على العثمانيّين لعدم تمكّن العثمانيّين من الاسـتيلاء على المدينـة مـن خلال الأسـوار، ولقد أحسّ المسـلمون بخيبـةِ أملٍ

كبيرةٍ بسبب هذه الواقعة، واعتبر معارضو الحصار هذه الواقعة حجّةً وبرهانًا، وحاولوا إقناعَ السلطان بالتنازل عن فكرة مواصلة الحصار، وقد اتّفق معظم أركان الدولة مع الصدر الأعظم "خليل باشا" في اتّخاذ طريق رفع الحصار وعقد المصالحة مع العدوّ، لكن السلطان محمد كان يبذل جهدًا حثيثًا من أجل فتح المدينة بفضل همّته العالية ودعم عددٍ قليلٍ من رجال دولته، وكان من بين الذين يدعمون قرار السلطان عدد قليل من علماء الدين، لا سيّما "آق شمس الدين" و"مُلا أحمد جوراني"، والوزير "زَاغَانُوسْ باشا" من أركان السلطنة، ولم يكن هؤلاء الأشخاص راضين تمامًا عن عقد اتّفاق سلام مع الكفار الواقعين تحت الحصار، ولقد بذل السلطان جهودًا كبيرةً من أجل فتح المدينة، ولا يرى أن عقد اتّفاق سلامٍ مع الإمبراطور سيكون مناسبًا".

زعم معارضو فكرةِ مواصلةِ حصار القسطنطينية أن جيشًا صليبيًّا كبيرًا ربما يأتي من أوروبا في حالة طولِ فترة الحصار، ودافع هذا الفريق عن فكرة الاكتفاء بضريبة بقيمة سبعين ألف قطعةٍ ذهبية تُحصّل من البيزنطيين، وعلى النقيض، عارض مقترحَ "خليل باشا" كلٌّ من "شهاب الدين باشا" و"زَاغَانُوسْ باشا" و"طُورْخَانْ بَاشَا"، ومن العلماء "آق شمس الدين" و"مُلّا جُورَانِي"، ودعموا السلطان وكان السلطان قد مال لبرهةٍ إلى تنفيذ فكرة "خليل باشا" ورفعِ الحصار عن المدينة، وبعد ساعاتٍ من التوتّر الشديد والمناقشات الحادّة بين الفريقين، أخمدت أصوات الفريق المؤيد لرفع الحصار، وصدر قرارٌ في النهاية برفض عرض الإمبراطور ومواصلة الحصار.

أرسل "آق شمس الدين" في تلك الليلة الصعبة والمتوتّرة بعد الهزيمة، خطابًا مهمًّا للغاية إلى السلطان موقّعًا باسم "خضر"، وهذا الخطاب

محفوظٌ اليوم في "متحف قصر طُوبْ قَابِي" بإسطنبول، ولا يوجد احتمال أن يكـون هذا الخطاب مفبركًا أو مـزوّرًا، فهو بمثابة الوثيقة الوحيدة التي بيـن أيدينا التي توثّق لفتح القسـطنطينية، وفيما يلي نـورِدُ الترجمةَ العربيّة لنـصّ هذا الخطاب بعدما أعاد البروفيسـور "د. فريدون أمجان"(١١) نشـره بشكلٍ متوافقٍ مـع اللغة التركية المعاصرة:

''لقـد حدثـت هذه الواقعةُ بسـبب ركّاب تلك السـفينة، وقد أدخلـت الملـل وخيبـة الأمل إلى قلوبنـا، ولاحـت أمامنا عوامل كثيرة، وانقلب الوضـع ضدّنا، وأحد هذه العوامل هو شعورُ الكفار بسـعادةٍ كبيـرةٍ وأريحيّةٍ تامّـةٍ وارتفاع مسـتوى المعنويّات لديهم، وأمّا العامل الثاني فهو عدم اسـتطاعتكم إدارة الأمور جيّدًا بالقدر الكافـي، وتراخـي الجنود فـي تنفيذ أوامركم، ويمكننـا أن نُضيفَ لذلك بعض الآراء والقناعات التي كانت ترى أن دعائي وتبشيري لا أسـاس لـه، والآن ليس وقت الدعّـة والإهمال، فيجب في مثل هـذه الحـالات المبادرةُ إلى البحث والوصول إلى مَن تسـبّب في وصـول الوضـع إلى ما هو عليـه الآن، ثم ينبغي فـرض عقوباتٍ فوريّـةٍ رادعـةٍ للمسـؤولين عن هذه الوضعية، ومـن ثمّ عزلهم من مناصبهـم، وإلا فإنهم سـيتصرّفون بتوانٍ عندمـا تهجمُ قوّاتنا على القلعـة وتبـدأ الخنادق تمتلـئ بالجنود، وكما تعلمـون فإن معظمَ هؤلاء من المسـلمين الكسالى، ومن أهل الأفعال القسرية، وهناك القليـل من الذين يضحون بأرواحهم في سـبيل الله، فهؤلاء عندما يرون المصلحة والغنائم يهمّون إليها ويلقون بأنفسهم في النار من أجل متاع الحياة الدنيا.

(١١) الأستاذ الدكتور "فَريدون أَمَجَان (*Feridun Emecen*)" هو مؤرخ مشهور في تركيا، ألّف عديدًا من الكتب والمقالات حول التاريخ السياسي والاجتماعي العثماني، ومنها "**سليمان القانوني سلطان البَرّيْن والبَحْرَيْن**" نشرتْه دار النيل باللغة العربية سنة ٢٠١٤م - القاهرة.

وأرجو منكم الآن أن تمارسوا سلطتكم، وتضربوا بيدٍ من حديد، وأن تعيّنوا شخصًا جافًّا غليظًا للتعامل مع أمثال هؤلاء، وهذا تصرُّفٌ أيّدته الشريعة؛ إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٧٣/٩).

ولقد حدثت واقعةٌ عجيبةٌ بينما نحن تسيطر علينا حالةٌ من الملل، فنظرنا إلى القرآن الكريم فصادفَتْنا هذه الآية:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٦٨/٩).

والآن فهؤلاء ليسوا مسلمين مخلصين، وهم في حكم المنافقين، وسيُعَذَّبون في جهنم مع الكفار، فقد وردت الإشارة بهذا، وبناءً على ذلك؛ يجب التصرُّف بشدّةٍ وحزمٍ.

اشحذوا همّتكم حتى لا تؤولَ عاقبتُنا إلى خيبةِ الأمل والخذلان، واعلموا أننا سنسعَدُ وننتصرُ بحول الله ومددِه، بَيدَ أنّ الأمر كلّه بِيَدِ الله ويأتي منه، لكن علينا أن نعملَ ما بوسعنا وألا نتوانى، فهذا هو طريق رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ولقد نمتُ بعدما قرأت القرآن الكريم وأنا حزين، والحمد لله أن شهِدْتُ ألطافًا كثيرةً وأخبارًا مفرِحةً وسارّة، وقد وجدت سلوى كبيرة لأني لم أشهد أشياء كهذه منذ زمنٍ بعيدٍ، فأرجو أن تأخذ كلامي هذا بعين الاعتبار لأنه نابعٌ من صميمِ حبّي لكم".

وفي يوم الحادي والعشرين من أبريل/نيسان بدأت المدافعُ العثمانيّة المركّزة شمالي أسوار "جالاطة" تدُكّ السفن الجنويّة والبيزنطية الراسية في الخليج، ولمّا لم يصلِ العثمانيون إلى ما كانوا يطمحون إليه من خلال

هذه الهجمات؛ بادر السلطان إلى التكليف بصناعة مدافع ذات ماسوراتٍ عموديّةٍ، لتدخل التاريخ بوصفها أوّل "مدفع هاون" في التاريخ، وكانت قذائف المدافع الجديدة تُصيبُ أهدافَها وهي تطيرُ من فوق المنازل الواقعة في منطقة "جالاطة"، وكانت الأسوار البرّيّة هي الأخرى تتعرّض لقصفٍ مكثّفٍ في الوقت نفسِهِ، وكان القصف العثماني للمدينة مكثّفٌ وعجيبٌ لدرجة أنّ أحدًا لم يكن يتجرّأ أن يرفعَ رأسه، وكانت الأسوار والأبراج تتمزّق، ولم يكن أحدٌ يرى أمامه بسبب الغبارِ الكثيف، وصارت الأسوار التي كان يُعتقد أنها غير قابلةٍ للتدمير تنهارُ واحدةً تلوَ الأخرى أمام قذائف الهاون التي لم تشهدها البشرية من قبل، وبدأ سكّان المدينة ينتظرون هجومًا شاملًا عقب هذا القصف المكثّف، وحلّ الانتظار القلِقُ محلَّ السعادة التي عمّت سكّان المدينة جرّاء الانتصار الذي حقّقته بحريّتُهم على الأسطول العثمانيّ، وامتلأت سماء المدينة بطبقةٍ من الدخان الكثيف والأسود الناجمِ عن قذائف المدافع وطلقات البنادق، لكنّ هجومًا لم يقع كما كان متوقّعًا، ما دفع حامية المدينة لاستغلال هذه الفرصة من أجل ترميم الأسوار المحطّمة والثغرات المفتوحة واتّخاذ احتياطاتٍ دفاعيّة جديدةٍ على الفور.

ومن ناحيةٍ أخرى؛ حاولَ قائدُ الأسطولِ العثماني "حمزة بك" تنفيذَ عدّة هجمات من أجل كسرِ السلاسل المنصوبة عند مدخَل الخليج من أجل العبور، وكان السلطان يهدُف من وراء هذا القصف المكثّف أن يضغطَ على المدينة والجنويّين في "جالاطة" من نواحٍ عدّة في سبيل إخفاء الاستعدادات التي كان يقوم بها من أجل مشروعه الكبير، وكان هذا

الأمـر فـي الواقـع حركةَ تضليلٍ للعدوّ، وبهذا الشـكل غاب عن الجنويّين الطريق المعبّد والممتد أمام أسوار "جَالَاطَه".

وأمـا فـي ليلـة الثاني والعشـرين مـن أبريل/نيسـان وضـع السـلطان العثمانـيُّ الشـابُّ مخطّطًا غير مألـوف، فبفضل التصميمـات التي أُعدّت منـذ وقتٍ طويـلٍ والأعمال التي بُدئت قبل ذلك بأيّام اسـتطاعت القوّات العثمانيّـة تسـوية التـلال الواقعة خلف أسـوار "جالاطـة" وتطهيرَهَا، وتمّ تثبيتُ ألواحٍ خشـبيّةٍ وأشياء مسـتديرة في المنطقة البرّيّة الممتدّةِ من "بحر مرمرة" إلى الخليج، وتمَّ طليُها بالزيت لكي يتشـكّل معبرٌ مناسـبٌ لمرور السفن، وسُيّرت السفن الصغيرة تلك الليلة أوّلًا، ثم سُيّرت السفن الكبيرة بعـد ذلـك بفضل الطرق الجديدة التي طبّقتها قـوّات البحريّة العثمانية من خـلال الخبـرة التي اكتسـبتها فـي هذا المجـال، وأنزلت قطـع الأسـطول الصغير المؤلّف من سبعين قطعةً إلى مياه الخليج عبر أراضي "دُولْمَابَهْجَه قُويُـو" و"قَابَاطَـاشْ"، وقد أُصيـب البيزنطيّـون باندهاشٍ كبيـرٍ عندما رأوا السـفن العثمانيّـة في الخليج صبيحة اليوم التالـي، وتبدَّلَ الفرحُ الذي عمّ المدينـةَ جرّاء النصر الذي حقّقه الأسـطول البيزنطـي في المعركة البحريّة التـي وقعت مـع العثمانيّين، إلى خوفٍ وهلـعٍ كبيرَين جرّاء هذا الهجوم، وقد انتهى المناخ الكئيب الذي كان مسيطرًا على الجيش العثماني، وازداد الإيمان لدى الجنود بالفتح.

ويـروي المؤرخ البيزنطي "دوكاس" الشـهير -الذي يعتبر من الأعداءِ القسـاة للعثمانيّين عامة وللسـلطان محمد خاصة، والذي يعرفُ السلطانَ شـخصيًّا- واقعـةَ إنـزال السـفن العثمانيّة إلـى خليج القـرن الذهبيّ بهذه العبارات الحماسيّة:

"لـم يـرَ أحـد أو يسـمـع حركـةً كهـذه، وكان ملـك الفرس "كيخسـرو" قد أنشـأ جسـرًا فـوق مياه البحـر، وعبر بجنـودِه إلى الشـاطئ المقابل وكأنه يسـير على اليابسـة، وأما السلطان محمد، الإسـكندر الجديـد أو أعظمُ سـلاطين زمانِه في رأيـي، فقد حوّل اليابسة إلى بحرٍ، واستطاع تسييرَ السفن من على تلال الجبال بدلًا من الأمواج، وعليه فإن هذا السلطان تفوّق حتى على "كيخسرو"، ذلـك أن هـذا الأخير عبر مضيق الدردنيل، لكنه هُزم أمام الأثينيّين وعـاد أدراجَه يجرجر أذيال الهزيمة والعار، وأما السـلطان محمد فقـد عبـر اليابسـة كما هي فـي البحر، ودمّـر حصـونَ البيزنطيّين، واستطاع السـلطانُ العثماني السيطرة على القسطنطينية ملكة مدن العالم، والتي كانت تلمـعُ كالذهب الحقيقي".

وبعد أن أنزل العثمانيّون أسطولهم المتواضـع في مياه الخليج، أرسل الإمبراطـور جـزءًا من قوّاته الدفاعيّـة لحماية الأسـوار المحيطة بالخليج لتوقّعـه أن يقـوم العثمانيّون بالهجوم من هذه الجهة، وهو الأمر الذي أدّى إلـى ضعـف الأسـوار البرّيّة للمدينـة، وكان الجميـع يفكّر فـي أن المدينةَ المحاصرة من كلّ جانبٍ ستسـقط وأن مسـاعيهم لإنقاذها سـتنفَد واحدةً تلوَ الأخرى، وقد وافق الإمبراطور على أقسى الشروط وأعرب عن رغبته في السلام تحت أيّ ظرف، فأجاب السلطان بقوله:

"لا يمكنني أن أغادر المدينة، فإما أن آخذَها أو تأخذني هي، حيًّا أو ميتًا، فإذا أراد الإمبراطور أن يغادر المدينة فسأتنازل له عن شـبه جزيـرة بيلوبونيز، وأوقّـع معـه اتّفاق صداقةٍ، وأمنح شـقيقه الموجـود هنـاك ولايـةً أخرى وأمـا إذا لم أدخل المدينة بالسـلام ودخلتهـا محاربًا، فسـوف أعاقب الإمبراطور وكافّـة النبلاء وقادةَ الدولة بالموت، وسـأوزّع سكّان المدينة بين جنودي كعبيدٍ وإماءٍ، وأما أنا فتكفيني المدينة وإن كانت خاويةً على عروشها".

وكان هـذا ردّ السـلطان على عرض الإمبراطور، وهـو ما أظهرَ عزمَه وتصميمه على إنجاز هذه المهمّة التي بدأها.

شـعر قـوّاد البحريّة اللاتينيّـون والبيزنطيّون بالقلقِ من هجومِ السـفن العثمانيـة المنزلـة إلـى ميـاه الخليـج بالتعاون مـع السـفن المنتظِرة عند السلاسـل، وكانـوا يتابعـون كلّ شـيءٍ بحذرٍ كبيـرٍ، وقد انعقـد مؤتمرٌ في المدينـة قـرّر الحاضرون فيه حـرقَ السـفن العثمانية الراسـيةِ في الخليج كإجـراءٍ احتـرازيٍّ لحماية المدينـة، وعندما تأجّل تنفيذ هـذه العملية التي كان من المقرّر تنفيذها يوم الرابـع والعشرين من أبريل/نيسان، نزولًا على مقتـرحِ جنويـي جالاطة، وصـل الخبر إلى السـلطان محمـد الذي أصدر تعليماته باتّخاذ التدابير اللازمة، واسـتطاعت البحريّة العثمانيّة بنجاحٍ صدّ هجومٍ حاول البحّارة البندقيّون تنفيذَهُ على الخليج يوم الثامن والعشـرين من أبريل/نيسـان، وقد أصابت قذيفةُ مدفعيّة سفينة القائد البندقي صاحب التخطيط للهجوم وقائده "جاكومو كوكو"، ممّا أدّى إلى غَرَقِ السفينة ومن كان على متنها بمن فيهم القبطان، ومات حوالي مائة وخمسـون شـخصًا غرقًـا، ويصـف لنا "ليوناردو" المنحـدِر من جزيرة "خيـوس" هذه الواقعة بعدما شرح الحصار بشكلٍ مفصّلٍ اعتمادًا على مشاهداته، فيقول:

> "عـادت سـفُنُنَا وهي تهيمُ على وجهها حتـى دخلت الميناء، ووصل بعض البحّارة الذين سـقطوا في الماء إلى الشـاطئ، لكن العدوّ أسرهم، وأمرَ حكّامُهم الظالمون بضربِ أعناقِهم أمام أعيننا في اليوم التالي، ولما رأى رجالنا هذا المشهد جنّ جنونهم واقتادوا الأسـرى العثمانيّين الذين كانوا في أيدينا وذبحوهم بوحشـيّةٍ أمام رفاقهم فوق الأسوار، وبهذه الطريقة ازدادت وحشيّةُ الحرب بهذا المزيج من الكراهيةِ والقسوة".

لم تحاول القوّات العثمانيّة القيام بهجومٍ شاملٍ في هذه المرحلة، وفي الوقت الذي واصل فيه الجيشُ العثمانيّ قصفَ المدينة من جانب الأسوار البرّيّة قصفًا مدفعيًّا عنيفًا، عمدت وحدات المدفعيّة العثمانيّة أيضًا إلى قصف الأسوار المطلّة على خليج القرن الذهبي، وفي تلك الأثناء بدأت -اعتبارًا من الأول من مايو/أيار- المجاعةُ والفوضى والسوق السوداء والاستغلال، كل هذا بدأ يغزو المدينة بشدّةٍ إلى أن أنهك سكّانها، ويصف لنا "ليوناردو" المنحدر من جزيرة "خيوس" تلك الأيام بقوله:

> ''رأينا مرّات عديدة البيزنطيين الخائفين يتركون محالّ وظائفهم متحجّجين بحقولهم وشرابهم والتعب الذي حلّ بهم، بعضهم كان يقول إن أسرته تحتاج للرعاية، والبعض الآخر يشتكي من قلّة النقود ويقول إنّه مضطرّ للذهاب من أجل البحث عن عملٍ لكسب المال، وعندما عاتبتُهم وأنا أقول لهم إنهم لا يخاطرون بأنفسهم فقط، بل يخاطرون بالنصرانيّة وأتباعِها، أجابوني بقولهم "كيف يمكنني أن أفكّر في الجيش بينما تعيش أسرتي في حاجةٍ وعوزٍ؟" وقد صدرت أوامرُ بتوزيع الخبز بالتساوي بين سكّان المدينة حتى لا يترك الجنودُ أماكنَهم على الجبهةِ بحجّة رعاية أسرهم، وكذلك حتى لا يخشوا الجوع أكثر من السيف بعدما عمد رجال الأسواق السوداء إلى تخزين الأطعمة أو بيعها بأسعار أعلى، غير أن النظام القائم بالمدينة كان قد تزعزعَ، وفقدَ الإمبراطور جَلَدَهُ وثباتَه؛ إذ لم يكن يعاقب أو يقطع رأسَ من لا ينفّذُ أوامرَه أو يتجاهلُها''.

سيطرت حالةٌ من اليأس والضجر والارتباك على سكان المدينة بشكلٍ كاملٍ، وكانوا يفسّرون حتى الأحداث الطبيعيّة بشكلٍ سلبيّ، ويختلقون نبوءاتٍ سيئة من أيّ شيءٍ يحدث، فعلى سبيل المثال: خرج حشد كبيرٌ

من الرجال والنساء يطوفون بشوارع المدينة وهم يحملون صورة السيدة مريم العذراء ويتضرّعون إلى الله كي يحفظَ مدينتهم وينجيها من العثمانيّين، فسقطت صورة السيدة مريم على الأرض، ما دفعهم لتفسيرِ هذه الواقعة على أنها إشارةٌ إلى سوءٍ كبيرٍ سيصيبهم، وعقب ذلك أمطرت السماء أمطارًا كثيفةً بشكلٍ مفاجئٍ على الحشد ذاته، وفاضت شوارع المدينة بالمياه الغزيرة حتى جرفت الناس من أماكنهم، فصعب عليهم الثبات في أماكنهم، ناهيك عن السير وسط هذه السيول، وكان سكّان المدينة، الذين تعوّدوا على انتظار وقوعِ كارثةٍ في أيّ لحظةٍ، يفسّرون سلسلة الأحداث الطبيعية هذه على أنها إشاراتٌ للنهاية المرّة التي قرب وقوعها، وفي يوم ثانٍ سيطرت حالةٌ من التشاؤم على سكّان المدينة بعدما غُطّيت سماء المدينة بطبقةٍ كثيفة من الضباب على مدار اليوم من الصباح وحتى المساء، وكانوا يفسّرون هذه الأحداث على أن "الإله ترك البيزنطيّين وشأنهم، وأن الربَّ أدار ظهرَه لهذه المدينة"، هذا إضافةً إلى وجود عداوةٍ وكراهيةٍ بين البندقيّين والجنويّين الذين هرعوا لتقديم المساعدات إلى القسطنطينية، وكان هذان الفريقان يتّهمان بعضهما البعض بالخيانة والجبن، ولم يستغرق وقتًا طويلًا حتى تحوّل هذا التوتّر إلى اشتباكاتٍ بالشوارع، وهو الأمر الذي أوقعَ الإمبراطور "قسطنطين باليولوج" في حيرةٍ كبيرةٍ، وقد دعا الإمبراطور اللاتينيّين إلى إنهاءِ الشقاق بينهم ومقاومة الخطر القادم من الخارج من أجل الله، وقدّم الفريقان اللذان تصالحا وعدًا للإمبراطور بتقديمِ كلّ إمكانيّاتهم للدفاع عن المدينة من جديد.

وعندما علم السلطان باليأس والفوضى والصراعات الدائرة في القسطنطينية أصدر أوامرَه بتنفيذِ ثاني هجومٍ شاملٍ على المدينة عقِب

صلاة الفجر يوم الجمعة الموافق للسابع من مايو/أيار، وقد تكثّفت الهجمات في محيط مناطق "طُوبْ قَابِي" و"أَدِرْنَه قَابِي" و"مَوْلَانَا قَابِي"، واستطاعت المدفعيّة العثمانيّة تخريب الأسوار المجاورة لمنطقة "سانت رومانوس" التي يدافع عنها القائد "جستنياني"، ما أدى إلى فتحِ ثلاث ثغرات في الأسوار، وفي الوقت الذي وقعت فيه مواجهات مباشرةٌ بين البيزنطيّين والعثمانيّين الذين هاجموا المدينة من هذه الثغرات، استطاع جنديٌّ إنكشاريٌّ ضخم الجثّة يُدعى "مراد" أن يصل إلى "جستنياني" ويصيبه بسيفه، وقد أسرع جنديّ بيزنطيّ بالقفز من على السور وقطع رجل "مراد" ببلطة كانت في يده، لينقذ قائده من الموت المحقّق، وفي تلك الأثناء عبر أحد حكام صناجقة الروملي ويدعى "عمر بك" من الأسوار وشارك في القتال، غير أن حامية المدينة أوقفته، وتمكّن أحد قادة الدفاع ويدعى "رانجيبس" من شَقِّهِ إلى نصفين بالسيف، فهرع رجال "عمر بك" إلى الهجوم على "رانجيبس" حتى قطعوه إربًا إربًا، وفي نهاية المطاف توقّف القتال بحلول المساء.

شنّت القوّات العثمانيّة هجومًا شديدًا من ناحية قصر "تكفور" يوم الثاني عشر من مايو/أيار لدرجةِ أنّ سكّان المدينة بدؤوا يفكّرون أن أمرهم قد انتهى وأن المدينة ساقطةٌ بأيدي العثمانيّين لا محالة، حتى إن الفرسان العثمانيّين دخلوا المدينة من الثغرات التي فُتحت في بعض الأسوار، غير أنهم تراجعوا لما تأخرت عليهم القوّات الداعمة لهم من الخلف، وفي صبيحة اليوم التالي بادر البيزنطيّون إلى جمْعِ جثثِ الجنود العثمانيّين من حول الخنادق وأحرقوها.

واعتبارًا من يوم السادس عشر من مايو/أيار بدأت معارك الأنفاق الدامية، حيث خطّط العثمانيّون إلى حفر هذه الأنفاق حتى قلب المدينة من أجل إدخال الجنود عبرها، غير أن المهندسين البيزنطيّين اكتشفوا هذه الأنفاق، وبدؤوا يهدمونها واحدًا تلو الآخر، ممّا أدّى إلى سقوط عددٍ من الجنود العثمانيين الذين كانوا بداخلها شهداء، وقد حدّدت القوات البيزنطية عددًا من الأنفاق بالقرب من منطقة "أَيْرِي قَابِي" يوم الحادي والعشرين من مايو/أيار، وهدمتها، وكان الهدف الآخر من هذه الأنفاق هو الاقتراب إلى ما تحت الأسوار وإزاحة التراب من تحتها ثم تفجيرها بالديناميت من أجل هدمِ الجدران.

بادر الجيش العثماني إلى تجريب طريقةٍ جديدةٍ للهجوم على المدينة يوم الثامن عشر من مايو/آيار، حيث بُنيت أبراجُ حصارٍ ذات أرجلٍ متحرّكة يوازي ارتفاعُها ارتفاع أسوار المدينة، ورجّح العثمانيّون تبطين هياكل الأبراج بطبقتين من جلد الثيران الرطب (الطريّ) كي لا تصلها النيران، وكانت هذه الأبراج تتحرّك على عجلاتٍ، ويستطيع الجنود الصعودَ إلى أدوارها العليا بواسطة سلالم داخليّة، كما كانت تضمّ نوافذ لإطلاق النيران من داخلها.

ويشرح "باربارو" بإعجابٍ شديد أن هذا البرج بُني خلال أربع ساعات فقط، وأنه لم يرَ في حياته شيئًا كهذا قط، وكان البرج يقع أمام باب "بلجراد" الحالي، وكان الرماة والجنود المتسلّحون بالبنادق يمطرون أفراد الحامية المتمركزين على الأسوار بوابلٍ من السهام والرصاص، لكن هذا البرج المتنقل لم يكن آلة للهجوم فقط؛ إذ كان يسهل القيام بالعديد من المهام مثل اقتراب الجنود من الأسوار بأريحيّة وحفر الأنفاق والأراضي،

وكان يمكـن فتح الجسـر المتحـرّك بعد تقريب البرج من الأسـوار، لتقام بذلـك منصّة بيـن الجانبين، وفي الليلـة ذاتها بادر البيزنطيـون إلى تفريـغ الخنـادق التي ملأهـا العثمانيون، وذلـك بفضل عملٍ جماعيٍّ شـارك فيه حتى النسـاء والأطفال وكبار السـن، ورأَسَهم فيه الإمبرطور، ونجحوا في حـرق برج الحصار هذا وهدمِه بالنـار الإغريقية، لكنهم بدؤوا يعانون من قلّة الإمكانيات والصعوبة البالغة في ترميم الثغرات التي أحدثتها القذائف المدفعيّـة الضخمـة التي قصف بها العثمانيّون الأسـوار، ولـم يفلحوا في ترميم الأماكن المهدّمة، وإن كانوا قد سعوا لتحقيق ذلك بكلّ ما أوتوا من قوّةٍ، وكانت المدينة تقترب بسرعة نحو النهاية المحتومة.

إن أهالي أيّ دولةٍ أو قلعةٍ أو مدينةٍ إذا استسلموا دون حرب أو مقاومة فـإن قانون الحرب في الإسـلام يحصّـن أموالَهم من النهـب ورقابَهم من الأسر، ولكن إذا قاوموا وتحقّق الفتح من خلال الحرب، فيُشرع للمقاتلين المسـلمين أسر سـكّان المدينة وأخذُ أموالهم، حيث تسـتمرّ عمليّة سلب الأموال ثلاثة أيام، ولتوقّعه باقتراب سقوط المدينة، أرسل السلطان محمد مبعوثًـا إلـى الإمبراطـور للمرّة الأخيرة بهـدفِ عدمِ حـدوثِ عمليّة نهبٍ للمدينـةِ والحيلولة دون الإضرار بعاصمة الإمبراطوريّة الرومانيّة الشـرقيّة لألـف عـام، والتي تُعتبـر مركزًا لحضـارة عظيمـة، وقد أقـام الإمبراطور "قسـطنطين الحادي عشـر باليولوج" مراسـم لاستقبال الرسـول العثماني "إِسْـفَنْدِيَارْ أُوغْلُو قاسـم بك" الذي أخبر الإمبراطورَ الأخير أن السـلطان يخشـى الأحداث التي ستقـع عقب سـقوط المدينة جرّاء الهجوم الشامل الذي تسـتعدّ لـه قوّاته، وطلب منه مغـادرةَ المدينة، وفي هـذه الحالةِ فإن بمقـدورِه نقل جميـعِ ثروتِـه والخروج بها من المدينة، إضافةً إلى حصولِهِ

علـى حُكم شـبه جزيرة "بيلوبونيـز"، وقال له إن سـكّان المدينة بإمكانهم كذلـك أخـذُ أموالهـم وثرواتهم ومغـادرة المدينة إلى أيّ مـكانٍ يريدون، أو البقـاء في المدينـة والعيش في أمان إن أرادوا ذلك، غير أن الإمبراطور ورجـال دولته الذين كانوا بجوارِه رفضوا هذا العرض، وأخبروا المبعوثَ العثماني أنه يمكن عقدُ اتّفاق سـلام مـع السـلطان شـريطة رفعه الحصار عـن المدينـة، وأنهم على اسـتعدادٍ لسـداد الضريبةِ السـنويّة بانتظامٍ مهما زاد مقدارهـا، وأن حاكـم القسـطنطينية لا يمكنه هـو ولا أي أحد غيره أن يستسلمَ ويتنازل عن المدينة، وأضاف "قسطنطين" بقوله: "نحن مستعدّون للموت!".

وكان الحـل الوحيـد بعد هذه المرحلة هو إسـقاط المدينة عن طريق شـنّ هجوم شـامل، وبهذا الرفض الـذي أبلغه للمبعـوث العثماني يكون الإمبراطـور قد وافق على أسْـر جميـع سـكان المدينة، واغتنـام أموالهم، وعدم السماح لأحد منهم بمغادرة المدينة دون إذن حال فتحها.

وقعـت حادثـة يوم السـادس والعشـرين مـن مايو/أيار في مقـرّ قيادة الجيـش العثمانـيّ أدّت إلـى انخفاضِ الـروح المعنويّة وزيـادةِ التوتّر بين صفوف الجنود، فقد وصل وفدٌ من الرسـل المجريين، وهددوا السـلطان بقولهم إن جيشًا صليبيًّا جديدًا سيتحرّك نحو الشرق إن لم يُرفـع الحصار عن القسطنطينية، وأخبر الوفد المجري السلطان أن جيشًا كبيرًا حاشدًا من جميـع دول أوروبـا على وشـك عبور نهر الدانوب، وأن أسـطولَ أوروبّا المتّحـد يسـتعد للإبحار نحـو المضائق، وفي الواقـع، كان هناك أسـطولٌ بندقـيٌّ كبيرٌ متواجـدًا في بحر "إيجَه" في تلك الأثناء، وانتشـرت أنباءٌ بين الجنـود العثمانييّـن مفادُهـا أن الجيـوش الصليبيّـة والأسـطول الأوروبي

المتّحد قد دخلوا الأراضي العثمانية، وهذا ما أدى إلى زيادة التوتّر بينهم، كما عزّزت هذه الأنباء موقفَ معارضي حصار القسطنطينية منذ البداية، وكان الصدر الأعظم "جاندارلي خليل باشا" هو الذي يقودُ فريقَ المعارضين الذين كانوا يصرّون على قولهم إن الدولة ستتعرّض لأزمةٍ كبيرةٍ إذا لم يُرفع الحصار، وكان الصدر الأعظم يتذكّر معارك "إيزلادي" و"فارنا" و"كوسوفو الثانية"، ويخشى أن يتحرّك النصارى بجيوشٍ كبيرةٍ نحو الأراضي العثمانيّة، وأما "زَاغَانُوسْ باشا" و"آق شمس الدين" وبعض رجال الدول الآخرين فكانوا يدافعون عن النظريّة التي ترى أن البيزنطيّين لن يتلقَّوْا مساعداتٍ من أوروبا، وإن تلقّوا حتى لن تكون بالقدر الكبيرِ، مؤكّدين ضرورةَ مواصلةِ الحصار حتى سقوط المدينة، وقد بدأت تسود حالةٌ من القلق في صفوفِ الجنود بسببِ استمرار الحصار وعدم الوصول إلى نتيجةٍ مرجوّةٍ، وبالرغم من ذلك فإن البشائر التي كان يسوقها الشيخ "آق شمس الدين" ومريدوه حول قرب تحقّق الفتح لعبت دورًا فعّالًا في إعادة تشجيع الجنود ورجال الدولة وحثّهم على مواصلة الحصار وعدم التراجع.

وقد أفضى هذا الأمر إلى عقدِ مجلس الحرب العثماني اجتماعًا جديدًا واتّخاذه قرارًا بمواصلة الحرب وحصار المدينة مهما كان الثمن، وصدرت تعليماتٌ لجميع وحداتِ الجيش بالاستعدادِ لشنِّ هجومٍ شاملٍ.

بدأ القصف المدفعيّ مجدّدًا بشكلٍ كثيفٍ اعتبارًا من يوم السابع والعشرين من مايو/أيار، ولم تعُدْ أسوارُ البيزنطيّين القديمة تتحمّل الصمود أمام هذه المدافع الحديثة ذات القوّة التدميريّة الهائلة، وارتفع عددُ الثغرات في الأسوار، ولم تستطِع حاميةُ المدينة ترميمَها بعد الآن،

وقد بادر عددٌ من كتائب الجنود العثمانيّين إلى دخول المدينة عبر أماكن مختلفة، غير أنهم طُردوا إلى الخارج مجدّدًا، وفي تلك الأثناء عُرِضَ على الإمبراطور من قِبَلِ مستشاريه أن يهربَ، لكنه اختارَ أن يدافع عن بلده بشرفٍ حتى النهاية.

وفي ليلة الثامن والعشرين من مايو/أيار نُظم قدّاس في كنسية آيا صوفيا التي كانت تُعتَبَرُ من أهمّ كنائسِ النصارى، بحضورِ الإمبرطور، وكان هذا القدّاس هو القدّاس الأرثوذكسيّ الأخير في تلك الكنسية، كما عقد مجلس الحرب العثمانيّ اجتماعًا آخر في مقرّ قيادة الجيش، وقد ألقى السلطان محمد خطابًا مؤثّرًا للغاية في هذا الاجتماع، وأعلن أنه سيصدر تعليمات بترقية أوّل من سيقفزُ على أسوار المدينةِ ويرفعُ الراية العثمانيّة على الأبراج، وأن من ينجح في ذلك سيعيش حياة جديدة وسيمنحُ إقطاعات، حيث أراد السلطان من وراء ذلك رفع الروح المعنويّة لدى الجنود.

أشعل الجنود العثمانيون مشاعل حول أسوار المدينة ليلة الثامن والعشرين من مايو/أيار، وتشكّل مهرجان كبير، وأحاطت المدينةَ دائرةٌ واسعةٌ من النيران، ووقعت الأسوار تحت حصار سيلٍ من الأضواء، ويصف "دوكاس" هذه الليلة الأخيرة كالتالي:

> "عندما حلّ المساء، أرسلت القيادة العثمانية منادين إلى الجنود لإبلاغهم بأوامرِ إنارةِ جميع الخيام بالأضواء الساطعةِ وإشعال النيران، وبعد أن أشعلوا النيران، بادروا إلى التكبير في صوتٍ واحدٍ عالٍ، وكانت النيران التي أشعلوها في اليابسة والبحر تُنير إسطنبول بشكلٍ أسطع من ضوء الشمس، ومنطقة "جَالَاطَه" وجميع السفن وحتى منطقة أوسكودار الواقعة على الجانب

المقابل من المدينة، وكان سطحُ الماء يلمعُ كضوءِ البرق في السماء، وأما البيزنطيّون فكانوا يعتقدون أن حريقًا اندلع في مقرّ قيادة الجيش العثمانيّ، وكانوا يدعون حتى يهلك الجيش العثماني كافّة".

كان الجنودُ العثمانيّون يعدون عدّتهم النهائية في مقرّ قيادة الجيش في ساعات الليل ويدعون ويكبّرون ويصلّون وينتظرون صدورَ أمرِ الهجوم الأخير، وبدأت حالةٌ من الحركةِ تدبّ في مقر القيادة عقِبَ الجزءِ الأخيرِ من الليل، وفي هذا التوقيت راجع السلطان محمد استعدادات جيشه، ثم توضّأ وصلّى وبدأ يدعو قائلًا:

"اللهم إنك الرزّاق العليم، أنت الواحد الأحد الغني عن العالمين، لم تلد ولم تولد، وبالرغم من ذلك فإن الكافرين ادّعوا التثليثَ واختلقوا مسألةَ الآب والابن وروح القدس، وأخرجوا من الإنجيل الآية التي تقول ﴿**وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾، ولقد صدق في حقهم قولك في القرآن الكريم ﴿**قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾، يا ربّ! إن أمنيتي أنا عبدك العاجز الذليل هي محاربةُ من لا يؤمن بك وفِعْل ما بوسعي من أجل إرضائك، فالإرادة إرادتُك والمُلْك ملكك، والقدرة بين يديك، والعون من لدنك سبحانك، صبّرنا على من نحن فيه، وزد ثباتنا وأعنّا في مواجهة هؤلاء المنكرين الكافرين".

احتزم السلطان سيفه، وامتطى جوادَه، وأمر -برفقة قادة جيشه- أن تبدأ المدافع بقصف الأسوار من أجل تدميرِ هيكلِها قبل الهجوم الأخير، وبعد أن كان الصمت يسيطر على المدينة، اختفى ذلك الصمت وسط أصواتِ القذائف المدفعيّة التي تصمّ الآذان، وغطّت طبقةٌ من الدخان الكثيف السماء، وقد اقتربت الوحدات العسكرية العثمانيّة مستغلّةً هذه

الفوضى، كما اتّخذ البيزنطيون وضع الدفاع، واستعدّوا لقتال المقاتلين العثمانيين وكانت فرق المَهْتَرْ (العزف) العثمانية تعزف أناشيد الهجوم بكلّ ما أُوتِيَت من قوّة.

بدأت الحرب بهجماتٍ شنّتها القوّات العثمانيّة من كلّ ناحيةٍ بالمدينة، وبادر الجنود العثمانيّون إلى شنّ هجومٍ شاملٍ بكلّ عتادهم على أسوار المدينة الذي ضغطوا عليها من كلّ اتّجاه، وشهدت الأسوار البرّيّة للقسطنطينية على وجه الخصوص قتالًا عنيفًا بين الجيشين، واستطاع العثمانيّون عبور الخنادق في هجمةٍ واحدةٍ، ومن ثم بدؤوا بتثبيت السلالم على الأسوار للصعود إليها، ولم يكن الجنود البيزنطيّون يستطيعون الاقتراب من مهارة نظرائِهم العثمانيّين وشجاعتهم، وإن كانوا قد شاركوا في القتال ببطولية منقطعةِ النظير، ويقول المؤرخ البيزنطي "دوكاس":

> "لم يكن الجنود البيزنطيّون محترفي قتالٍ حتى كأبسط جنديٍّ عثمانيّ، ذلك أن الجنود العثمانيّين كانوا مدرّبين جيّدًا على تحقيق هذا الهدف، وكان كل واحد منهم يرمي السهام بشكلٍ احترافيٍّ حتى أفضل من "أبولو" -إله الرماية لدى الإغريق-، وكان جميعُهم يشبه "هرقل"؛ إذ كان كل واحد منهم يستطيع الصمود أمام عشرة من أعدائه".

هاجمت الوحدات التي كان يقودها "زَاغَانُوسْ باشا" أسوارَ الخليج، فيما فتحَ الأسطول الذي كان يقودُه "حمزة بك" النارَ على الأسوار، وبدأت السفن العثمانيّة تُنزِلُ إلى الشاطئ الجنودَ الذين حاولوا تسلّق الأسوار من جانب البحر بكلّ ما أوتوا من قوّة، وعندما لم تتمخّض أيّ نتيجةٍ عن الهجومين اللذين قامت بهما القوّات العثمانية تواليًا؛ بدأ الجيش العثماني بشنّ هجوم ثالثٍ قُبيل الفجر، وكانت المنطقة الواقعة بين "طُوبْ قَابِي"

و"أَدِرْنَه قابي" تشهدُ أعنف المعارك بين الطرفين، وكان الجنود العثمانيون يحاولـون الدخـول عبـر الثغرات التـي فُتحت في أسـوار المدينـة، وكان الإمبراطـور والأمير "ثيوفيلوس باليولـوج" و"ديميتريوس كانتيكوزينوس" يسـعون لتنظيم خطوطِ جيشـهم الدفاعيّة وتشـجيعِ جنودِهم على خوض الحرب، وقد وصل السلطان محمد إلى تلك المنطقة، وكان يرسل جنودَه خارج الأسـوار، وعمد إلى اسـتخدام آخر أوراقه الرابحة بالدفـع بوحداته المركزيّـة وقـوّات الاحتياط، وكان مـن الواضح جليًّا أن النتيجـة النهائيّة سـتظهر قريبًـا في هـذه المعركـة، وعندمـا رأى القائد "جسـتنياني" قوات الإنشـكاريّة العثمانيّة قد همّت بالهجوم من هذه الناحية، أرسـل إلى تلك المنطقة جميـع قوّاته التعزيزيّة.

وكانـت الأحداث تجري عند الأسـوار وكأنّ القيامة قـد قامت، وبدأ جنـود الإنكشـاريّةِ بشـنّ هجـومٍ سـاحِقٍ على أسـوار المدينة مـع ارتفاعِ أصوات التهليل والتكبير والتمجيد، وتسـابقوا فيما بينهم لتسـلُّق الحصون والأسوار.

وقد أُصيب "جستنياني" في هذه المعركة، وفرّ هاربًا عندما فقد الأمل فـي النصـر، كمـا قُتل الإمبراطور "قسـطنطين الحادي عشـر" آخـرَ حكّام الدولـة البيزنطية، وفـي نهاية المطاف، نجحت القوّات العثمانيّة في كسـرِ باب السـور الـذي يُعتَبرُ بوّابةَ المدينة لتدخل الكتائـب العثمانيّة على هيئة مجموعات متفرّقة.

لـم يعد "جستنياني"، الذي أصيب خلال هذه المعركة العنيفة في فخذه وذراعـه وصدره، يحملُ أمـلًا في النصر بعد الآن، وقد أوصاه الإمبراطور بالاسـتراحة فـي خيمتِهِ حتى تهـدأ المعركة، إلا أنّه آثر الهرب من سـاحة

الحرب لأنه أدرك أن الفوز في هذه المعركة سيكون مستحيلًا بعد الآن، فرّ "جستنياني" هاربًا من أرض المعركة، وركب سفينته على الفور متّجهًا نحو جزيرة "خيوس"، وقد لاحظ السلطان محمد حالة الركود والاسترخاء التي دبّت في صفوف البيزنطيين عقب انسحاب "جستنياني"، فوجّه وحداته العسكريّة الأخيرة إلى الثغرات التي فتحت في الأسوار، كان العثمانيون على وشك عبور أقوى قلاع العصور الوسطى وأكثرها تحصّنًا والسيطرة على ملكة المدن ولؤلؤة الأعراض، وبدأت روما الشرقية تركَع أمام العثمانيين، وكان كلّ شيءٍ يسير في طريق سقوط المدينة، ورغم أن الإمبراطور واصلَ دفاعه عن المدينة وهو يبكي، وحارب هو وجنوده ببطوليّة وشرف إلا أن كلّ هذا لم يُجْدِ نفعًا.

نجح بعض جنود الإنكشارية في تسلُّق الأسوار والثبات فوقها عند خطّ "طُوبْ قَابِي" الذي كان يتواجد عنده السلطان في تلك الأثناء، وفي الوقت الذي حاول فيه البيزنطيّون طردَ الجنود العثمانيين؛ وصلت تعزيزات عثمانيّة من الخلف لتقوية هذا الموقع الذي استولوا عليه، وفي نهاية المطاف بدأت راية السلطان ترفرف فوق أسوار القسطنطينية، وبدأت الوحدات العثمانية على هيئة كتائب عبورَ الأسوار من أماكن مختلفة في المدينة ونجحت في دخولها، وبينما هرب الجنود البيزنطيون من أجل النجاة بأرواحهم، قاتل آخر إمبراطور في القسطنطينية العثمانيين بعينين شائخَتَين، وقد سقط على الأرض بعد ضربةِ سيفٍ تلقّاها، وسُحق تحت أقدام حشدٍ من الجنود، وبدأت القوّات العثمانيّة تُزيل الأعلام والرايات التي كانت تحمل صورة "نسر القسطنطينية" و"أسد البندقية" في مختلف أنحاء المدينة، وبعد أن تهاوت جميعُ الخطوط الدفاعيّة للبيزنطيّين، بدأت

حامية المدينة تهرب نحو المناطق الداخلية بالمدينة، فيما بادر السكان المحليّون إلى الاحتشاد داخل كنيسة آيا صوفيا التي لم يكونوا قد تردّدوا عليها منذ شهور، وإذا ما نظرنا لما كتبه المؤرخ "دوكاس"، نرى أنه إذا ما خرج مَلَكٌ على سكان القسطنطينية وخيّرهم بين أن يتحوّلوا إلى المذهب الكاثوليكي وينجوا بأنفسهم من العثمانيّين أو أن يبقوا على عقيدتهم الأرثوذكسية ويعيشوا تحت حكم العثمانيين، لاختاروا الخيار الثاني.

وبدأت وحدات الجيش بولوجِ المدينة عبر الأبواب المفتوحة، ثم تجمّعت عند ميدان "آقسراي"، وتقدمت نحو كنيسة "آيا صوفيا" بعد لجوءِ عدد من سكان المدينة إليها.

كان سقوط القسطنطينية بقوّة السلاح يعني فتح الباب أمام الجنود العثمانيين للسلب والنهب في المدينة على مدار ثلاثة أيام، وكان الجميع على علم بذلك، وقد ركب عدد من سكّان المدينة السفن البندقية والجنويّة، ورفعوا السلاسل الموجودة عند الخليج، وأبحروا في مياه بحر مرمرة، ولم يتعرّض هؤلاء لأي مقاومة من البحريّة العثمانية لأنهم كانوا قد نزلوا إلى الشاطئ.

واستطاع الجيش العثماني السيطرة بالكامل على المدينة بعد ظهر يوم الثلاثاء الموافق التاسع والعشرين من مايو/أيار (١٤٥٣م)، وبهذه الطريقة انمحت الإمبراطورية الرومانية من على الخريطة بعد تاريخ طويل دام لنحو ألفين ومائتَي عام، وتحقق بفتح القسطنطينية الحديث الشريف الذي قال فيه الرسول ﷺ قبل ثمانية قرون "**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ**"(١٢) وبعدها نزل السلطان "محمد

(١٢) المسند لأحمد ابن حنبل، ٢٨٧/٣١.

الثاني" من على جواده، وسجد سجدةَ شكر لله تبارك وتعالى على توفيقه في فتح المدينة.

وقد استطاع السلطان "محمد الثاني" بذلك الظفر بلقب "الفاتح" بعدما فتح القسطنطينية وهو شابٌّ لم يجاوز عمرُه الواحدة والعشرين، وقد دخل السلطان المدينةَ بعد ظهر ذلك اليوم وسطَ مراسم مهيبة يرافقه رجال الدولة وأكابر العلماء والقادة، وبذلك قد فتح السلطان الشاب بابًا جديدًا في التاريخ.

بدأ سكّان القسطنطينيةِ الهروب يمنةً ويسرةً وسطَ خوفٍ وهلعٍ كبيرين، وسُقِطَ في أيديهم، واجتمعوا داخل كنيسة آيا صوفيا، وأحكموا إغلاقَ أبوابها، ويشرح "دوكاس" سبب لجوءِ سكّان المدينة لكنيسة آيا صوفيا كالتالي:

> ''كان سكان القسطنطينية لديهم عقيدة بأن العثمانيين لن يستطيعوا التقدّم -عند دخول المدينة- سوى إلى عمود قسطنطين الكبير، أي منطقة "جَمْبَرْلِيطَاشْ" الحالية، وبحسب هذا المعتقد، فإن ملكًا سينزل من السماء ويعطي السيف المقدّس الذي يمسكه، وبالتالي الإمبراطورية، إلى شخص عادي ليطرُد العثمانيّين إلى خارج المدينة''.

كسرَ الجنود العثمانيّون أبواب كنيسة آيا صوفيا ودخلوها، لكنهم لم يرتكبوا أيّ مجزرةٍ بحقّ من احتموا بها وهم ترتعد فرائصهم من الخوف وقلّة الحيلة، هذا في وقت كان الجميع يرى أنه من العادي أن يرتكب الجيشُ المنتصر مذابحَ كبيرةً بحقّ سكّان أيّ مدينةٍ تسقطُ في أيديه بعد مقاومةٍ مستميتةٍ، لكن العثمانيّين لم يرغبوا أن يلطّخوا نصرَهم بدماء

سكّان المدينة العزّل، ولم يقربوا بالسلاح سوى لأولئك الذين قاوموهم، غير أن الجنود بدؤوا ينهبون المدينة على مدارِ ثلاثةِ أيّامٍ حتى حصلوا على غنائمَ كثيرة، حتى إن الثروات التي اكتسبها الجنود في تلك الأيام كانت سببًا في أن تنتشرَ مقولةٌ بين سكّان المدينة في السنوات اللاحقة تقول "هل شاركتَ في نهبِ إسطنبول؟"

وبحسب ما يرويه جنديّ ذو أصول بولنديّة من قوّات الإنكشاريّة شاهد الأحداث بنفسه؛ فقد نزل السلطان الفاتح من حصانه أمام كنيسة "آيا صوفيا" التي احتمى بها البطريرك والرهبان وأهل المدينة، وأشار بيده آمرًا الناس بالسكوت بعدما انهاروا من شدّة البكاء وجثوا على ركبهم، وقال للبطريرك:

> ''انهض! أنا السلطان محمد، وأقول لك ولأصدقائك ولكل الموجودين هنا لا تخافوا من غضبي، فلن يمسّ حياتكم أو حرّيّتكم أيّ مكروهٍ بعد اليوم''.

ثم التفت إلى قادة جيشه وأمرهم بحسن معاملة أهل المدينة، ومعاقبة مَن يخالف هذه التعليمات بشدّة، وطلب من سكّان المدينة العودة إلى بيوتهم في أمنٍ وطمأنينةٍ، وقد أبدى السلطان الفاتح احترامًا وتبجيلًا كبيرَين لكنيسة "آيا صوفيا"، ومنع أيَّ شخصٍ مِن إلحاق الأذى بالكنيسة، ثم رفع يديه إلى السماء ودعا قائلًا:

> ''يا إلهي! إن هذه الدنيا لا تدوم لأي شخص صغيرًا أكان أم كبيرًا، ملكًا كان أو وزيرًا، الفضل والمنّة لك أن جعلتني أنا عبدك الفقير سببًا في هذا الفتح العظيم''.

ثم طلب من أحد الذين كانوا برفقتِه أن يؤذّن للصلاة، وبهذه الصورة تحوّلت كنيسة "آيا صوفيا" إلى جامع يصلي فيه المسلمون، وصلى السلطان وأفراد الجيش أوّل جمعةٍ في مسجد "آيا صوفيا" في أوّل يومٍ من يونيو/حزيران (١٤٥٣م)، وخطب فيهم الشيخ "آق شمس الدين" الذي يعتبر الفاتح المعنويّ للقسطنطينية.

ولم تُعرف العاقبة التي منيَ بها آخر إمبراطورٍ للقسطنطينية "قسطنطين باليولوج" وعندما طلب السلطان محمد الفاتح تحديدَ ما إذا كان على قيد الحياة أم فارقها، بدأت عمليّة البحث في المدينة، وقال بعضهم إنه فرّ هاربًا، فيما قال آخرون إنه اختبأَ بالمدينة، بينما أفاد فريقٌ ثالث بأنه لقي حتفَه خلال المعارك، وتفحص العثمانيون جثث القتلى للوصول إلى نتيجةٍ مؤكّدةٍ، فجاء شخصٌ صربيٌّ إلى السلطان وهو يحمل رأس السلطان المقطوع، فسأل السلطان بكوات الروم عن ما إذا كان فعلًا هذا رأس الإمبراطور أم لا، فأكدوا له أنه فعلًا رأسه، وقال السلطان حينها:

> ''كيف خلقك الله مكرّمًا وجعلك إمبراطورًا، فلماذا أردت أن تهلك نفسك بلا فائدة هكذا؟''

وقد تمّ التعرف على جثة الإمبراطور من ملابسه، ذلك أنهم رأوا صورة النسر -الذي كان شعار الإمبراطورية البيزنطية- منقوشةً على حذائه وجواربه التي كانت باللون الأرجواني الذي كان يعتبر لون الإمبراطورية، وأمر السلطان بتسليم الجثة إلى كبار سكّان المدينة من النصارى، وأصدر تعليمات بأن تدفن وسط المراسم التي تقام للملوك.

وبعد أن فتح السلطان "محمد الثاني" القسطنطينيّة، أحيا الكنيسة الأرثوذكسية لتمثّل الشعب النصراني بعدما كانت قد فقدت وظيفتها

بشكل كبير؛ إذ عُيّن البطريرك "جينياديوس (*Gennadios*)" رئيسًا للكنيسة الأرثوذكسية في إسطنبول، واعترف السلطان لأتباع الطائفة اليهودية بأحقّيتهم في بناء معابد، واستدعى البطريرك "أوفاكيم (*Ovakim*)" من مدينة "بورصا" لتعيينه رئيسًا للطائفة الأرمينيّة، ليكون بذلك قد أحدث حالةً من التوازن بين أتباع الطوائف الدينيّة المختلفة بالمدينة.

وفي أحد الأيام دعا السلطان الفاتح البطريرك "جينياديوس" إلى مأدبةِ غداءٍ في القصر، وأهداه تاجًا وصولجانًا، وقال له:

> ''تستطيع الاستفادة من صداقتي متى تشاء، فأنت تمتلك كافّةَ الحقوق والامتيازات التي كان يتمتّع بها من كان قبلك''.

وأمر السلطان بوداع البطريرك إلى مقرّ إقامته المخصّص في كنيسة الحواريّين بمراسم مطابقةٍ لما كانت عليه البروتوكولات أيام الدولة البيزنطيّة، وكان يتضمّن المرسوم السلطانيّ الذي منحه السلطان للبطريرك ما يلي:

> ''لا يستطيع أحدٌ التحكّم في البطريرك، وسيكون هو ومن معه من القسّيسين معافون بالكامل من أداء كافّة الخدمات العامّة، ويقومون بإقامة كلّ الشعائر الخاصّة بمراسم الزواج والدفن وغيرها من عادات السكّان اليونان طبقًا لقواعد وأصول الكنيسة اليونانيّة''.

وقد أُولي اهتمامٌ كبير باحترام البطريرك وتبجيله منذ ذلك التاريخ، وواصلت شعوب فلسطين وقبرص وروسيا والبلقان تبعيتها للبطريركية الأرثوذكسية في إسطنبول، وأمرت القيادة العثمانيّة بتعيين فرقة من الإنكشارية لحراسة البطريرك وحمايته.

وممّا لا شكَّ فيه أن هذا التسامح الجمّ الذي أظهره السلطان الفاتح للبطريرك نابعٌ من الأهمّيّة التي يوليها الإسلام لحريّة الاعتقاد والعبادة لأتباع الديانات الأخرى، ويشهدُ التاريخ على العديد من هذه الأمثلة منذ زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وسائر الخلفاء اللاحقين، ولعلّ السلطان محمد الفاتح أراد من وراء تطبيق هذه الإجراءات تنفيذَ خطّةٍ تقتضي استمرارَ الخلاف بين الكنائس النصرانية في الشرق والغرب، وربْط نصرانيّي الشرق بسلطة دولتهِ بواسطة البطريركيّة وذلك للحيلولةِ دون فرضِ أيّ تأثيرٍ لاتينيّ كاثوليكيٍّ على اليونانيّين وسائر شعوب البلقان الأخرى.

سقط الصحابيّ الجليل "أبو أيوب الأنصاري" ﷺ -الذي استضاف في بيته النبي الكريم ﷺ إبّان الهجرة- شهيدًا عام (٦٦٩هـ) عندما حاولت الجيوش الإسلاميّة حصارَ القسطنطينيّة في عهد الخليفة الأموي وأحد كتّاب الوحي "معاوية بن أبي سفيان"، وقد استطاع "آق شمس الدين" اكتشافَ مكان ضريح الصحابيّ الجليل لاحقًا، بعدما فُقد أثره، وعندما فُتح الضريح، وجدوا حجرًا من الرخام منقوش عليه عبارة "قبر أبي أيوب"، فأمر السلطان الفاتح ببناء القبر وتشييد الضريح بما يتناسب مع مكانة ومقام الصحابي الجليل، ثمّ أمرَ بإنشاء جامعٍ ومدرسةٍ ووقفٍ إلى جواره الضريح، وقد استشهد "أبو أيوب الأنصاري" في أولى محاولات المسلمين لحصار القسطنطينية، وانتظرَ شهيدًا مجيدًا على تخومها ثمانية قرون حتى شهِد فتحَها، ليضفي ضريحُه بعد ذلك جوًّا من المعنويّة الخاصّة على المدينة الجميلة.

مؤذّن

وقد بدأ التعداد السكانيّ للقسطنطينيّة بالانخفاض بمرور الوقت إثر تكرار الحملات الصليبيّة على المدينة عام (١٢٠٤م)، وتدهوَرَ حالُ سكّانها وأصبحوا أكثر فقرًا وعوزًا، وقد اتّخذ العثمانيّون بعد فتحهم القسطنطينية كافّةَ التدابير اللازمة من أجل إعادة إحياء المدينة وتنميتها وإعمارها، وقدموا ضمانات لسكّان المدينة من الروم الذين غادروا منازلهم أثناء

حصار المدينة من أجل العودة إلى بيوتهم، وتمّ تسكين بعض القبائل التركمانيّة في المدينة بعد نقلِهم من مدن الأناضول المختلفة، وشهدت الأعوام التالية لذلك التاريخ فتوحاتٍ عديدةً للدولة العثمانيّة، وأُرسل الفنّانون والتّجّار من المدن المفتوحة إلى إسطنبول، وقد يُعتبر جامع الفاتح وكلّيّتُه أوّل جامع كبير يُبنى في إسطنبول، وكانت كلّية الجامع تضمّ مستشفى ومطبخ ووقفًا ودارًا للضيوف ومكتبة ومدارس عليا، كما افْتُتحت مدرسة "أيا صوفيا"، وانتقل للتدريس فيها مجموعة من أبرز وأشهر العلماء من البلدان التركيّة والإسلاميّة المجاوِرة، فعلى سبيل المثال، وجهت دعوةٌ إلى كبير علماء الرياضيّات الشهير بمدرسة سمرقند "علي قُوشْجُو (*Kuşçu*)"، ليُعيَّن كبيرًا للمعلّمين في مدرسة أيا صوفيا، وبدأت سائر مدارس إسطنبول الأخرى بتطبيق البرامج الدراسية التي وضعها هذا العالم الكبير، وقد بادر عددٌ من رجال الدولة والباشاوات والوزراء في الدولة العثمانيّة إلى إنشاء العديد من المؤسّسات الاجتماعيّة والدينيّة المختلِفة، بحيث جَعَلت هذه المؤسسات من إسطنبول واحدةً من أهمّ مراكِز العلوم والثقافة في العالم الإسلامي في القرون اللاحقة.

لقد محا السلطان بفتحِه القسطنطينيّة الإمبراطوريةَ الرومانية الشرقيّة (٣٩٥-١٤٥٣م) من التاريخ، واستطاع بتحقيقه هذا الانتصار الأعظم والأهمّ في تاريخ العثمانيّين أن يحوز لقب "فاتح القسطنطينية" التي أعلنها "محروسة السلطنة" أي عاصمتها، وبانتقال المدينة إلى أيدي العثمانيّين؛ توحّدت أراضيهم الموجودة في الأناضول مع تلك الموجودة في البلقان، كما نجحوا في الوقت نفسه في السيطرة على المضائق المائية، ومن ثمّ بسطوا نفوذَهم على طريق الحرير والطرق التجاريّة التي تربط البحر

الأسـود بالبحر الأبيض المتوسّـط، وهـو ما يعني إجبار الـدول الأوروبّيّة على التبعيّة إلى الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية، غير أننا سنرى أن سـيطرةَ العثمانيّين على الطرق التجارية، سـتدفـع الأوروبّيّين للبحث عن طـرقٍ جديـدةٍ توصلهم إلى الممالك الشـرقية، واكتشـاف مناطق جغرافية جديـدة، ومـن ناحية أخرى ثبـت بالبراهين القاطعة أن القـوّات المدعومة بالمدافـع ذات التكنولوجيا المتقدّمة في ذلك العصر، بإمكانها هدم أسوار أيّ مدينة مهما كانت متانتها وصمودها، وقد مهّدت هذه الأوضاع أرضيّةً خصبـةً أمام نهاية عصـر الإقطاع في أوروبا، وتقوية الممالك المركزية في القـارّة العجوز، وانتشـرت ادّعاءات في تلك الفترة تشـير إلـى أن الفنانين والعلماء البيزنطيين الذين غادروا القسطنطينية بعد فتحها إلى إيطاليا، قادوا بدايات حركات النهضة التي شهدتها أوروبا في القرون اللاحقة، واعتمادًا على كافّة تلك الأحداث والتطوّرات التي سردناها آنفًا؛ فقد ساق عددٌ من المؤرّخين مزاعم مفادها أن فتح العثمانيين للقسـطنطينية كان بمثابة نهاية العصور الوسطى، وبداية العصر الحديث.